www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

الوطن عندما يخون

الجزء الثاني من

تداعيات ضمير المخاطب

د. عادل الأسطة

الصياغة ألأولى/ تموز 1994
الصياغة الثانية/1996/7/10

إشارةً

لن أصدر هذه الرواية بعبارة الروائيين المعروفة: "أي تشابه بين أشخاص هذه الرواية وآخرين في الواقع هو محض صدفة "، وذلك لأن الرواية هذه تصور واقعا نحياه، ومنه استمددت ما ورد فيها من أحداث وشخوص، وهي بذلك رواية واقعية، على الرغم مما تثير هذه المفردة من غثيان لدى بعض النقاد. وربما صح القول ايضا انها حقيقية، لا واقعية وحسب. وإنما اريد ان انوه إلى انني، وانا اكتب، لم اكن افكر بالأساءة الى أشخاص معينين قدر ما أردت تصوير واقع معين في فترة زمنية معينة، وعليه فآمل من القراء الذين يعرفونني ويعرفون بعض شخوص هذه الرواية الا يلجأوا الى ما لجأوا اليه في أثناء قراءة نص "ليل الضفة الطويل"، أعني ألا يربطوا بين شخوص الرواية واشخاص من الواقع، والا يسألوني السؤال الذي مللت الاصغاء اليه: من هو فلان. أليس فلاناً ؟.

أأنا أنا ؟
أأنا هنالك ... أم هنا ؟
في كل " انت " أنا،
أنا انت المخاطب، ليس منفى
ان اكونك. ليس منفى
ان تكون اناي انت. وليس منفى
ان يكون البحر والصحراء
أغنية المسافر للمسافر:
لن أعود كما ذهبت،
ولن أعود .. ولو لُماما !

" محمود درويش :
لماذا تركت الحصان وحيدا ؟"

يا امرأة الليل !
أنا رجل حاربت بجيش مهزوم
ما كنت احب الليل بدون نجوم
وأخيرا صافح قادتنا الاعداء
ونحن نحارب
ورأيناهم ناموا في الجيش الاخر،
والجيش يحارب
والان سأبحث عن مبغى
استأجر زورق
فالليل مع الجيش المهزوم طويل
" مظفر النواب:
وتريات ليلية "

تخاطب نفسك : " ليس هناك من جدوى، والصمت أجدى". وتكرر عبارة سعد زغلول : ما فيش فايدة. ما فيش فايدة يا صفية " وتضيف: " لقد مرت ثلاث سنوات بعد العودة وما زالوا يمارسون عادتهم التي جعلت منهم ساديين الى درجة لا تتصور".

تتأمل في ذاتك وتكتشف ان الاشياء هنا لم تعد تثيرك. ترى ولا ترى. تصغي الى الآخرين. تصمت أحياناً، وأحياناً تعقب على ما يقولون، وقد تتفوه بأكثر مما تفوهوا. تراقب اللعبة التي تحولت الى مسرحية، وتهمس: " لم تكن الامور، في بدايتها، لعبة أو مسرحية ". تبتسم، الان، للممثلين متعددي الاعمار والاجناس والانواع، وقد تشاركهم فيما يقومون به، وتتذكر الدكتور ديك، أستاذ الأدب الألماني، وما قاله عن مسرح بريخت التعليمي. وتهمس: "لقد كان بريخت موفقا حين طلب من الحضور ان يشاركوا في التمثيل، أحياناً، وألا يكونوا مشاهدين فقط".

مساءً تجلس أمام التلفاز. تنظر الى المذيع، ذكراً كان أو انثى، وتمعن النظر في شكل ملابسه. ولا تشتهي المذيعة، وان كنت تتابع قصة شعرها وشكل ملابسها وألوانها. وتحاول، من خلال ذلك، ان تقرأ الرسالة جيداً؛ أن تفك رموز الشيفرة، وان تعرف ما يريدون قوله. ويذهب بك الأمر، أحياناً، الى ما هو أبعد من ذلك، فتراقب اللوحة المعروضة قبل بدء النشرة وتلك التي تليها، وتصغي الى ما تقوله المذيعة التي تقرأ بعد انتهاء نشرة الأخبار برامج المساء والسهرة.

تستمع الى الخبر الأول، وتنظر في لون الخط، وتتابع نشرة الاحوال الجوية، وتتساءل عن المخبرين الكثر هنا، هؤلاء الذين يتصلون بجهات عديدة هنا وهناك، شرق النهر وغربه، شرق المتوسط وغربه وتهمس: " هل يمكن ان يتحول العالم كله الى مخبر ؟"

وأنت في الجامعة، تنتظر الطالبات اللواتي يأتين بانتظام. " هناك قوىً خفية تحركهن. قوى تلقنهن كلاماً ما يتصرفن بناءً عليه " وتدرك هذا جيداً. " أنت لا تحتاج، دائما، الى وضع النقاط على الحروف حتى تكون العبارة بينة مفهومة، تخاطب نفسك وتضيف: " واللبيب بالأشارة يفهم " وتتابع: " والعرب الذين قالوا هذا قديماً ما كانوا يتصورون أن أحفادهم قد لا يفهمون فصيح الكلام ".

وتأتي الفتيات. يأتين واحدةً واحدةً. تصغي الى أحاديثهن، وتنظر الى ملابسهنّ التي توحي لك بما يردنّ، تماماً كما توحي لك حركاتهن. وقد تكتفي واحدة منهنّ

وتحنّ، وأنت تشرب القهوة، الى هناك. كان لقاؤك الأول مع بربارة في فترة الاستراحة التي تخللت المحاضرة الطويلة. اقتربت منك ودعتك الى شرب القهوة، وفي الكافيتريا تبادلتما العناوين واتفقتما على موعدٍ جاءت فيه بربارة غزالة برية تركض في السهول الخضراء. وحين بدوت شرقياً وأخذت تتحدث في الأدب قاطعتك قائلة: " لقد شبعت أدباً في الجامعة". وقد قادك فنجان القهوة الى عوالم اخرى.
" ليس المهم ان يشرب المرء القهوة أيتها السيدة " تخاطب ذاتك وأنت تصغي الى الفتاة، وتتابع: " ولكن المهم ما تؤدي اليه " وتقرأ في عينيها ما يدور في ذهنها.

" لن أكترث كثيراً للفتيات هنا. انهن ثرثارات وإمّعات. تأتي الواحدة اليك. تقول على مسمعك كلاماً ثم تذهب الى فصيلها لتقصه على أفراده بالطريقه التي تريدها، ويصدقها الفصيل ليتبنى رأيها " ..." ولن أصغي الى اشارات الاخرين وتلميحاتهم، فهؤلاء أجبن من ان يقولوا رأيهم بوضوح" وتقرأ ما بين الكلمات. يحاورونك اشارياً. يقولون لك انك عاجز جنسيا أو شبق جنسياً.
يفسرون لك ما لا تعرفه عن نفسك. يسقطون عليك ما يدور بخلدهم. يوحون اليك تارة بأنك تريد فتاةً متعلمة، وطوراً فتاةً بيضاء، وثالثةً بأنك تفضلها نحيفة، ورابعةً بأنك ترغب في الاقتران بفتاة صغيرة السن.
هذه التي تبدو رصينة فتنظر اليك وتحاورك اشارياً، تقلقك. تنظر الى الكتاب الذي بيدها وتقرأ عنوانه " اتفاق المباني واختلاف المعاني " وتتساءل عن قصدها وتخمن اسم ذلك الشخص الذي أعطاها الكتاب.
لقد تحول العالم الى كابوس. ثلاث سنوات مرت. ثلاث سنوات والمشهد نفسه يتكرر، وعليك ان تشاهد المسرحية نفسها، عليك ان تتعايش مع لغة الاشارة وجنون الوطن بمن فيه عرباً و يهوداً و يهوداً عرباً ويهوداً المانا. " لتكن مجنوناً وماذا في ذلك. لقد جّن الجميع فكيف تلاحق هؤلاء. هل تريد ان تصبح المجنون الوحيد؟ اترك عقلك، اذن، جانباً واشرب من ماء البشر الذي منه يشربون وكرر مثل الناس هنا: ما أجن من مجنونٍ يلاحق بلداً الا البلد الذي يلاحق مجنوناً. فلتجن اذاً

" لتلعب مع اللاعبين. لا تكن مشاهداً وحيداً في مسرحية يشارك فيها سكان المكان كله، فهذا الشكل من المسرح لم يوجد بعد. وقد ينجم عن مشكلتك أشياء لم تكن خطرت ذات يوم على ذهن أي شخص "

يأتون اليك فرادى وقد يأتون اليك زرافاتٍ أيضا. يثرثرون معك. يحاورونك اشارياً ثم ينسحبون بعد ان يقوموا بأتمام الدور الذي أعد لهم. وتتراجع عن فكرتك التي راودتك: " ثمة في هذه الحياة ما هو أجدر من ان يكون المرء ممثلاً باستمرار. هنالك أشياء على المرء ان ينجزها حتى لو كان يدرك في قرارة نفسه ان الاخرين لا يستحقون ما يفعله لأجلهم " وتواصل: " لم يعد الزمن مناسباً، فأنت لم تكن أصلاً، ذات نهار، ممثلاً. " سامحك الله أيتها الخالة. سامحك الله : انني لا أجيد التمثيل اطلاقاً، ولا أستطيع ان أحيا كما يستطيع الاخرون، ولذلك فان تلك الفتاة لا تناسبني: هي تقبل على الحياة بفرح، تقبل عليها بجنون، وأنا لم اعد كذلك. لا. لا أعتقد ان الرجل الكشر يحتاج الى امرأة لعوب. قد يكون الضحك تعبيراً عن حالة فرح ولكنه قد يكون أيضاً ضحكاً كالبكا. وضحكي هو ضحك البكاء.

" على المرء ان يرتدي، أحياناً، جلد التماسيح. عليه ألا يضعف، اطلاقاً، أمام الاخرين. وأحياناً، في حالتي، يجب ان ينظر الى الممثلين المملين باحتقار شديد، وعليه، فوق هذا، ان يمارس حياته، كما يريد، لا كما هم له يريدون. عليّ ان أنام في الوقت الذي أراه مناسباً، وأن اشاهد التلفاز واصغي الى نشرة الاخبار، وأتابع الفيلم الذي يعرض من على شاشة التلفاز الاسرائيلي، وان ابحلق في النساء جيداً وهن يضاجعن من الرجال أو وهن يضاجعن الرجال، وعلي أيضاً ان اشتهي الجميلات، مثلما أشتم الملك وأبا عمار ورابين والحكام العرب وأمريكا وبقية العالم."

" انهم، في معظمهم، أبناء كلاب. وليس، هناك، فيهم، من يحترم ذاته " تقول في سرك عن أولئك الذين يأتون لزيارتك، وتتابع: " يتظاهرون أمامك بأنهم أصدقاؤك الأوفياء، حتى اذا ما انصرفوا أدركتَ أنهم ليسوا سوى سفلة."

تجلس كل مساء في غرفتك التي وضعت فيها جهاز التلفاز، وتمارس عادتك اليومية. تصغي الى نشرة الاخبار المصورة. ترى الجثث وقد تسمع رنين الجرس، وتشتم الملوك والرؤساء الذين يواصلون ابتساماتهم. " علينا كل مساء ان نشاهد

" لن أصغي الى كلام الاخرين اطلاقاً، لا ولن التفت أيضاً الى تلك الصبية التي تتعقب الخطى". كانت الصبية تلاحقك. كانت تريدك وما زالت تشتهيك، ولكنها بلا شخصية. تبدو، أمام الاخرين، جريئة. تتحدث بطلاقة مذهلة. ترتدي الابيض والاسود لتوحي لك بأنها واضحة وضوحا تاماً، وأنها تنظر الى الاشياء، وتبدي رأيها فيها، بوضوح." اريد ان أشرب القهوة " وتخوض معك في أحاديث شتى. تستدرجك رويداً رويداً لتعرف رأيك في أشياء معينة ثم تنقل الحوار كله، كما تحب هي، الى الاخرين، ولم يكن يمضي طويل وقت حتى تعرف هذا. يكرر أولئك الذين نقلت اليهم الكلام، أو أولئك الذين يتبعون لهم، الكلام الذي دار بينك وبينها.
" عوالم أخرى. يتبارى الفريقان. يلعبان كرة السلة جيدا. لا يحرز أي منهما أهدافاً. يشتعل الغاز ذو العيون الأربعة. "

تقف الفتاة التي تبدو رصينة، في الممر، أسفل الدرج وتحاورك اشارياً. تقول لك ما يقال عنك. وترفع يدها اليمنى لتقول لك انك أبيض أسود في تصرفاتك. " تختلط الألوان ولا يبقى منها ما هو واضح. لا الأبيض يبقى أبيض ولا الأسود يبقى أسود. ثمة مادة ما تذيب اللونين. ثمة من يقف وراء الفتاة بالمرصاد " تخاطب نفسك حين تتصرف هذه الفتاة تصرفاً مغايراً لتصرفها السابق. وتضيف " هذه الفتاة التي تبدو رصينة تختلف عن تلك التي تود ان تشرب القهوة " تحاورك اشارياً ولا تجرؤ على محادثتك. وتتساءل ان كانت صماء بكماء. منذ عام ونيف وأنتما تتحاوران دون جدوى. وتتذكر أندريا طالبة الأدب الألماني وتهمس: " ربما نؤول الى النتيجة نفسها."

تصور أوراقك الخاصة بك بعيداً عن آلات التصوير التي تخص الجامعة. " من غير المعقول ان أستغل عملي في الجامعة لتصوير هذا الكم من المقالات التي كنت نشرتها، من قبل، في الجرائد والمجلات الفلسطينية، " وفي مكان التصوير تلتقيان. تنظر اليها فترى فيها فتاة وديعة هادئه. تلتفت الى وجهها الناعم وشعرها الطويل الذي تربطه من الخلف فيبدو مثل ذنب الفرس. تتبادلان التحية وتنظران الى نظراتكما. يتكرر اللقاء يومياً. تواصلان ما انقطع من حوار. تصور لك، كل يوم، ما تأخذه معك من مقالاتك. تسألك أسئلة معينة عن حياتك الخاصة، وترد على السؤال أحياناً بسؤال. تعرفان عن بعضكما أشياء وأشياء، وتحاول هي ان تتأكد مما سمعته عنك. وأحياناً تصور ورقة وتأخذ بقراءتها. وتنقطع عن تصوير أوراقك أياماً معدودات تستريح فيها من أسئلة الطلبة الذين استغربوا ذهابك الى هناك، بعيدا عن آلات التصوير التي تخصهم. وتلتقيان، ذات نهار، من جديد. كانت، وهي في الجامعة، تشرب الشاي وتحادث زميلاً لها. تأتي اليك وتسألك: " لماذا لم تعد تأتي ؟ " لقد فرغت من تصوير الأوراق " تجيبها وتتابع : " وها نحن نلتقي هنا " تدعوك لتشربا، معاً، الشاي وتسألها: " ألم تسافري بعد ؟ ألم تحصلي على المنحة ؟ " ليس بعد " تجيبك وتعود، من جديد، الى اثارة أسئلتها. " ثمة قوة خفية تحرك هذه الفتاة التي تثير أسئلة كهذه أمامي. هذه الفتاة التي بدت، للوهلة الأولى، وديعة لم تعد وديعة " تسألها: " هل يخص مكان التصوير الذي أخذت، مؤخراً، تعملين فيه صاحب المحل الاول الذي كنت تعملين فيه قبل ايام؟ " نعم " تجيبك. " لقد بدأوا يفسدونها " تخاطب نفسك وتنظر الى شكلها لتلحظ ان ثمة تغيراً طرأ عليه. " لقد كنت، من قبل، بضة ممتلئة فماذا أصابك؟ هل تحنين الى مكان العمل الأول؟ " وتتابع: " لقد كان شعرك، قبل قصه، أجمل! " وبيدو أن قصة الشعر هذه لا تناسبك " وقبل ان تفترقا تقول لك: " سأزورك مرة أخرى لنواصل الحديث " وتترك الجامعة لتهبط هي الى قاع المدينة مشياً، وتبلغك انها لا تفعل ذلك بخلاً.

" انت في هذه المدينة لا تستطيع ان تقول كل شيء مباشرة. وانت ايضاً لا تستطيع ان تكتب الاحداث على ماهي عليه. قد تقول كلّ ما تريد ولكنك لا تستطيع ان تكتب كل ما تراه. يمكن ان تقول الكلام بلغة الاشارة، واذا ما حاولت كتابة الاشياء، باللغة نفسها، أشكلت عليك وعلى قرّائك أيضاً، هؤلاء الذين قد لا يكونون من المدينة نفسها فقط " تستبيحك المدينة في غيابك، وتستبيحك في حضورك. يقول الناس لك، هنا، بلا خجل، كل شيء. تماماً، كما تقول لهم، كل شيء. وما لا تستطيع قوله مباشرة تقوله اشارياً، وهم أيضاً بذلك خبيرون. وتنقذكم لغة الأشارة مما يمكن أن يورطكم قضائياً .

" ثمة تفاصيل لا أستطيع كتابتها. عليّ أن أترك اسم الفتاة جانباً. عليّ ألا أشير الى اسم عائلتها، وعليّ أيضاً ألا أقترب من المحرمات التي تبدو محرمات في الظاهر فقط. وتخاطب نفسك:

" ستظل هذه الفتاة شخصية روائية مجهضة لن تعمر طويلاً في ذهن قارئها. الحياة هنا كلها مجهضة، فلماذا، اذن، لا تكتب رواية تسميها أهالي نابلس مقلداً جيمس جويس في كتابه " أهالي دبلن ". اذا أردت حقاً أن تنجز هذا المشروع، أن تكتب بلا خوف ولا تردد، أن ترسم صورة للمدينة كلها: للناس والمكان والعادات والتقاليد، وأن تنشر ما كتبت فما عليك الا أن تفعل ما فعلته ابنة المدينة التي كتبت روايتها ونشرتها، هناك، في بيروت، وحرصت، في الوقت نفسه، ألا تصل نسخ منها الى المدينة ". فضحت سحر خليفة المستور ولم تستر المفضوح، فتحدثت عن تعريص الغني كما تحدثت عن تعريص الفقير " تقرأ كلاماً قريباً من هذا لناقد روائي، وتتساءل: " فلماذا لا يكتب هذا الكلام، ايضاً، شخص مستباح يفتحون منزله، يومياً، في غيابه، ليقرأوا أوراقه ، وليعيدوا ، على مسامعه، ما كتبه في الصباح؟ ."

" أعرف، منذ عدت، انني لست سوى دون كيشوت فلسطيني. اعرف انني أحارب طواحين الهواء لا لمتعة أو تسلية أو لاسترجاع زمن مضى. واعرف ايضا ان ما يجري هو العبث نفسه، والا فأي عاقل يستطيع ان يحارب الفصائل الفلسطينية كلها، في الوقت الذي يتحدث فيه عن الانظمة العربية حديث مظفر النواب شعرا، وفي الوقت الذي يكتب فيه عن الاسرائيليين ووحشيتهم كلاماً لا يروق لهم، تماماً كما يتحدث عن أمريكا وامبرياليتها والدول التي تدور في فلكها!!؟ أنا دون كيشوت ولا صديق لي فلقد مات سانشوبانزا منذ زمن".

تخاطب نفسك: "ليس ثمة مجالٌ للغة الاشارة. الوضوح والوضوح فقط. لا بدّ من وضع النقاط على الحروف" ولكنك سرعان ما تتساءل: "ولكن كيف ينقلب الوضوحُ الى غموض. الى ليلك. الى رمادي؟".

تصغي الى أبيك، ذات يوم، قائلاً: "انك مذبذبٌ ومنافق "وتضحك من عبارته: "سوف أكتب عنك، ذات مرة، أيها الأب، رواية" ترد على أبيك، وتخاطب نفسك: "ولكنهم سوف يقولون انك تقلد كافكا في رسالته لأبيه" وتتابع: "وقد يتمادون في كلامهم ويقولون: ان دماء اليهود تجري في عروقه" وتضيف:" وان كانوا دائماً يقارنون بين اليهود والفلسطينيين معتبرين أنفسهم يهود العالم الجدد" وتعقب:" وان كانوا لم ينجزوا، بعد تضحياتهم الفظيعة، دولة" وتتذكر ما قاله ابراهيم ابو لغد،

" سوف أكتب عنك، أيها الأب، ذات مرة، رواية" تخاطب اباك وترتد الى ذاتك: "ولكن كيف سأرسم صورته؟ هل أكتب عنه في حياته أم انتظر رحيله عن هذا العالم؟ من المؤكد أنه سيشتمني حين يقرأ ماأكتبه عنه، وقد تصل الأمور الى حد يتجاوز الشتيمة".

ذات نهار جاءك أبناء عمك وخاطبوك قائلين: "لقد قرأنا القصة التي نشرتها في جريدة "القدس" وعرفنا أنك تقصد أبانا الذي عرف، بدوره عنها وغضب منك". ويسخر عمّك منك حين تلتقيان. يهزأ بطريقة لافتة للنظر ويثرثر ثرثرة لا تطاق.

" كيف أرسم صورة لأبي؟ كان ابناء المخيم ينادونني باسم أمي الذي عرفوه وهم يصغون الى كلام أبي في البيت، أبي الذي لم يحفظ سراً ولم يفكر في الآخرين اطلاقاً، أبي الذي يمارس في حياته من الأفعال ما يسبب له شخصياً الراحة دون أن يكترث الى ما قد يجره هذا علينا، نحن الصغار، من متاعب" تهمس: "سوف أدوّن الفضيحة ان كتبتُ عنك. سوف يدفع الصغار من أسرتنا ثمنا لا يقدر دون أن يكونوا ارتكبوا اثماً ما".

" في هذه المدينة يحاسبُ المرء على ما ارتكبه أجداده منذ عشرات السنين، وقد يحاسب أيضاً على ما قاله الآخرون عنهم كذبا"، تقول هذا لشاب قروي مثقف، فيروي عليك الحكاية التالية: "ذات نهار، كان حلاق القرية يسير في الشارع دون أن يفطن الى من كان يسير خلفه، فأخرج ريحاً، وظنّ أنه استراح فما كان ممن كانوا وراءه الا الضحك عليه. وشاع الخبر في القرية كلها، فرحلّ الحلاق وتغرب، وذات يوم، بعد سبعة عشر عاماً، استبّد به الحنين الى القرية، فعاد متخفياً، وتتبع امرأتين كانتا ذاهبتين الى ماء العين، وأخذ يصغي الى حديثهما، وكان محوره فصٌّ حلاق القرية".

" هل أنا منافق يا أبي؟ أنا كذلك وأنت لست كذلك، ولهذا تطلب مني أنّ أمدح صاحب الجلالة الملك حتى اسافر عبر النهر، وأن أؤيد ابا عمار حتى أصبح مسؤولاً مهما مثل صديقي، وألا أكتب في السياسة حتى لا يمنعني الاسرائيليون من السفر".

تصغي الى أبيك غير مرة. " في يافا كنت أعرف الكثيرات عرفت شوشانا واستير وكلوديت. كنت وسيماً وكنّ يأتين اليّ. التشتكني من عيني. التشتكني من شفتي كخا عوسيم بتل أبيب كاخا عوسيم بيروشلايم" "وهكذا ضاعت فلسطين أيها الأب!". وتتابع كلامك: "وهكذا ضاعت يافا وضاع البحر لنعيش في هذه المخيمات.

يتخاصم أبوك مع أخيه فتتخاصم، تلقائيا، مع أبناء عمّك. وتدرك، الآن، بعد ثلاثين عاماً، أن أباك ليس سوى نسخة عن الحاكم العربي. يتخاصم الحاكم العربي مع الحاكم العربي، وتقرأ العبارة التالية على جواز سفرك: "يصرح لحامل جواز السفر هذا بدخول أقطار العالم كله كافة عدا العراق". "وتنسى يا أبي، الآن، تنسى يافا الى الأبد، ولا ألمسُ في كلامك أيّ حنين اليها. يا أبي انك زعيم عربي، لا أكثر ولا أقل. لقد فقدت كل ما تملك. لقد هرمت وضعفت وشخت وما زلت تنظر الينا على أننا جئنا من ...؟.

تقرر أن تبتعد عن الآخرين. أن تجلس، في شقتك، وحيداً. لا تكترث كثيراً لغياب الصبية المتعمد. كنت تعرف، جيداً، أنّ أمها تحركها، وأنها تقول لها ما ينبغي عليها أن تفعله، تماماً كما كنت تدرك أن الصبية تنفذ أوامرها. " على المرأة ألاّ تعرض نفسها على رجل، لأنها، ان فعلت هذا، ستصبح خفيفةً. عليها أن تتمنع عنه ما استطاعت" تقول النسوة ويضفن أحياناً "زوجها يوفرها وعشيقها يعفرها".

وتقرأ وأنت في الجامعة ما خطّه الطلبة على السبورة قاصدين.

ويلاه ان نظرَت، وان هي أعرضَت

وقع السهام ونزعهنّ اليم

ينتظر الطلبة ردّ فعلك حين تقرأ هذا. " هؤلاء الذين يفعلون هذا أغبياء، والحمقى هم الذين يوجهونهم". وتتساءل: " ألا يعرف الذين يطلبون من هؤلاء تنفيذ أوامرهم، أنهم، بهذا يسيئون الى الجامعة؟؟".

" عليك ان تتجاهل الطلبة وأوصياءهم " تهمس وتتابع : " ومن قال انني سأكترث لأي أمر يصدر عنهم. لعلهم لا يدركون ان الزمن، عندي، قد توقف منذ عدت. لعلهم لا يفكرون جيداً فيما يجري. "

لم تكترث لحضورها وفضلت غيابها، وفوق هذا لم تعد تلتفت، اطلاقاً، الى طبيعة ملابسها وألوانها. " انها يمكن ان تكون الألوان كلها، اما انها أبيض وأسود فلا. لا يمكن ان تعيش، في حياتها، بوضوح. أعرف هذا الصنف من البشر. ثمة شيء واحد فقط يحركه: مصلحته الخاصة. اينما كانت مصلحتهم يولون وجوههم شطرها،وأنا أشك في أنهم يعرفون الحب، تماماً كما أعتقد محقاً أن الوفاء، عندهم، ليس سوى مفردة في القاموس. " ان الذي ينقل أخبارك، الى غيرك، عن قصد لا يمكن ان يكون وفياً لك " تخاطب نفسك.

وتصبح، منذ تلك اللحظة التي لفت فيها قريبك أنظارك الى المذيعة الاسرائيلية جلوريا ستيورات، تلك التي تشبه آلف نون، أسيراً للتلفاز الاسرائيلي وتدرك لعبته. وتتساءل: " هل ثمة تنسيق بين الفصائل الوطنية والتلفاز الاسرائيلي؟" وحين يتفاوض الفلسطينيون والاسرائيليون في مدريد تعلق: " ها انني وحدّتُ بين الاعداء !" ولكنك لا تستسيغ مواصلة الاسرائيليين قتل أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة يومياً، ما دمت أصبحت عدو الطرفين معا.

" ... ولأنني أعرف " سمير" منذ الطفولة، لم أذهب الى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعيه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا تبقى منه؟ أعني ماذا تبقى من وسامةٍ كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يؤثر البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه حسن يوسف وخفر بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأمّه الحسناء الطاغية والشعر كستنائي مجعد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً بعيداً وقوي البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن الى ان أشعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الاسرائيلية بعناوين عريضة: القاء القبض على فدائي تسلل عبر الحدود لينسف حيفا "

" كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. ليس في وسع رجل مثلي " قال " ان يغير جلده لا خوفاً من ارهاب المؤسسة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصر التوازن. فلأعتبر نفسي -سواء كنت في هذا التنظيم أو ذاك- خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع تبعية بعضها، وهي لا تشملني، الى هذا النظام أو ذاك. كان يسيج نفسه ويميزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى ان يؤدي أي تعديل في اطاره الى الطعن في صدق تاريخه وفي حرارة تضحيته، لأن الأعتراض في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سلّم قيم " قابل للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ".

(" محمود درويش، ذاكرة للنسان، القدس 1990. ص25 / ص27 ").

" عليّ ان أتخلص من عادة مشاهدة الأخبار التي يبثها التلفاز الاسرائيلي، حتى لا يحاربني الاسرائيليون، عن بعد، خلافاً للوطنيين والاسلاميين الذين يقمعونني عن قرب، " وسرعان ما تجد نفسك، بعد فترة وجيزة، أسيراً للتلفاز

وتبدأ تقارن بين المذيعين الاسرائيلين والأردنيين وبين الأشخاص الذين عرفتهم هناك وكانوا سبب مشاكلك التي لما تنته، وتتساءل ان كنت مهماً الى هذه الدرجة. " أعرف انني انسان عادي.

فمن أنا حتى أشغل ثلاث دول وعشرين فصيلاً. كيف صدق الاسرائيليون ان سمير درويش سينسف حيفا؟ وكيف يصدق الالمان والاسرائيليون و الاردنيون والفصائل الفلسطينية انني خطر. لا لست محور العالم، وليست قضيتي أعقد من قضية الشرق الأوسط " وتخاطب صديقك الذي جاء يزورك وقال لك العبارة الأخيرة: " يبدو ان ما يجري ليس سوى تصفية حسابات بين فئات مختلفة تريد كل واحدة منها ان تظهر أمام الآخرين على انها الصح وأن غيرها الباطل. "

يقول الألمان ان سبب مشاكلك هم اليهود، ويقول اليهود ان الألمان نازيون، ويريد الملك رجالاً في الضفة، وتتحارب الفصائل الوطنية فيما بينها أكثر مما تقاتل الاسرائيليين، ويحاول كل فصيل ان يستميلك في حربه، الى جانبه. وتخاطب نفسك: " ولكنك لست نبياً أو رئيساً للولايات المتحدة. ألا يدركون هذا؟ "

" سأغط في نوم عميق. سوف أصعد الى الأعالي. الى هناك. سوف أحيا حياتي الخاصة كما أريد ان أحياها وليس كما يريد لي الآخرون ان أحياها. لا. لا لن أكترث لهؤلاء "

"كانت الافاعي تلتف على جسدك. أعداد كثيرة منها ذات أشكال مختلفة. أفاع سامة، وكنت تكره الافاعي وتخافها. " يا الهي كيف استطاع هذا الجسد الناحل ان يقاوم الأفاعي تلك كلها، وكيف تركها تلتف عليه".

وحين أحطت الطائرة، بعد غياب طويل، غياب أربع سنوات، حين حطت على أرض مطار اللد أخذت تعتقد انك من الان، لن تعيش الكوابيس التي كانت، هناك، تضغط عليك. يومها قلت: " ربما انجز، الآن، بهدوء. ربما أحيا يوماً هادئاً. ولعل فولا كانت تبالغ حين تعجبت يوم أبلغتها أنني سأعود، وقالت: كيف ستحتمل الحياة هناك؟ سوف يزعجونك كثيراً بما يقولونه عنك. "

لم تلتفت، يومها، الى فوضى المطار. أخذت تسير مسرعاً، ونظرت الى المستقبلين، وكان يشدك حنين جارف للقيا الأقارب وللوصول الى البيت: " الليلة سأنام بهدوء لم أعرفه منذ عام. الليلة لن أخوض كثيراً مع الآخرين، وسوف أقتضب في الكلام. سوف أصغي الى ما يقولون ولن أتكلم كثيراً. سوف ألتزم بحكمة القائل: لقد خلق الله للانسان أذنين وفماً واحداً حتى يصغي أكثر مما يتكلم".

تبصر أمّك وأقاربك، وتنهي معاملاتك واستجواب الشرطية، وتسوق العربة التي وضعت عليها حقائبك، وتسير مسرعاً. تسلم على المستقبلين بحرارة، وترفع بين فينة وأخرى بنطالك الذي بدا واسعاً بعض الشيء. لقد هزلتَ في عامك الأخير وبدوت شاحباً نحيلاً لدرجة لم تتصور. وفي المطار لم تلتفت لنظرات أقاربك المتسائلة: "لقد سافرتَ بضا ممتلئاً، فما الذي أصابك؟ هل كان ما تقوله خطيراً الى تلك الدرجة"؟ "لا. ليست الغربة وحدها. لا ليست الدراسة أيضاً".

وتصعد السيارة وأنت موزع بين الحديث الى ألأهل والاصغاء اليهم وبين قراءة اللافتات المكتوبة باللغتين العبرية والانجليزية. وتخاطب الآخرين حضوراً وغياباً: "أيها السادة لقد كانت المدينة هذه مدينة عربية. هل تعرفون اللد التي تعرفت على أهلها في مخيمات اللجوء؟ ما زلتُ أذكر الناس، في المخيم، وهم يتندرون على أهلها الذين كانوا يفخرون بأنفسهم وبنضالاتهم في حرب 1948" "ثمة صفة يتسم بها أكثر أهل اللد شكلاً. انهم عور. لقد فقد بعض سكان المدينة عيناً، وهم يقطعون الصبر ليأكلوه" تتذكر هذا وأنت تنظر حولك علك تجد أشجار الصبر. لقد امحت تماماً. لقد أمّحت ولم يبق لها من أثر. ولكنّ ما لم يزل من ذاكرتك ذلك الحديث الذي كان يدور بين أبناء المخيم، من قبل. كان أبناء المخيم يتندرون على لهجات أهاليهم المختلفة. لهجة أهل يافا، ولهجة أهل اللد، ولهجة الجماسيين، ولهجة أهل حيفا. "شلم يشلم عضمك" يخاطب البائع أبناء اللد الصغار ساخراً لأنهم لم يتأقلموا، بعد، مع أبناء المخيم الآخرين الذين أخذوا يشكلون لهجة جديدة تختلف عن لهجات الآباء. وتلحظ أن أهل يافا كانوا كسالى لأنهم يمطون الكلام مطاً، وأن الجماسين لا يفصحون في الكلام.

" لقد ضاعت اللدّ ايها السادة وضاع الوطن كله. أصبحت اللد، في نظر الملك، أرضَ عدو، وغدا السفر من مطارها تعاملاً مع العدو، أما الاجتماعات السريّة بين القيادات العربية والاسرائيلية فهي لصالح الوطن".

وتذهب، من قبل، "لإصدار وثيقة سفر اسرائيلية. وتتردد يومها تردداً لا حدود له. "اللعنة عليك أيها الفلسطيني! ماذا ستقول لهم، هناك، في أوروبا، عندما يسألونك عن جواز سفرك. اسرائيلي!!! ولكنك لن تستمتع بامتيازات حامل جواز السفر الاسرائيلي، كما يستمتع بها اليهودي والفلسطيني المقيم في اسرائيل الحالية".

وتصغي، وأنت في أوروبا، الى الفلسطينيين الذين يحملون جواز السفر الاسرائيلي: "اننا هنا لا نحتاج الى فيزا للتجوال في أوروبا. هذه ميزة، وثمة ميزة أخرى، أيها الأخ، وهي أننا، هنا، نصطاد الفتيات بسهولة".

"من أين أنت؟ من جروزليم! اذن أنت يهودي. وتسير الفتاة معك بسهولة" يقول لك كاسب.

وتودّ لو تسأل صديقك العربي فيما اذا كان الإعلام الاسرائيلي قد نجح في غسل دماغ بعض العرب والتأثير عليهم الى هذا الحد.

" تعشق الفتاة المسيحية الرجل، فاذا ما عرفت أنه يهودي ازدادت تعلقاً به. وقد تعرف أنه كذلك، ان أخفى عنها هذا، من الفراش، فاليهود شبقون جنسياً، وهم ايضا ودودون ويبعثون، في المرأة، السرور" ويبقى ذلك المشهد من فيلم "اعداء قصة حب" لاسحق سنجر عالقا في ذهنك. "كانت الفتاة المسيحية معجبة باليهودي الهارب من النازيين، ولقد بدا، وهما في الفراش، فحلاً. كانا يتصببان عرقا". "تركز الروايات الصهيونية على تعلق الفتيات المسيحيات بالشاب اليهودي، وعلى رغبتهن في انجاب طفل ذكي جميل منه" ليرحمك الله يا غسان كنفاني.

وتجد نفسك مسوقاً الى اصدار وثيقة السفر الاسرائيلية لتسافر، من ثمّ، من مطار العدو. وتحزن لكلام الرفاق الذين عادوا، من الأردن، حزانى. كانوا يقصّون عليك ما لاقوه، هناك، يوم ذهبوا لتجديد جواز سفرهم الأردني. تستدرجهم المخابرات الى فندق أبي رسول وتسألهم عن فصيلهم وافراده. " حين ذهبت الى الفندق للمراجعة بشأن جواز السفر، استدعاني ضابط المخابرات وأخذ ينظر إلي باستهزاء. وبعد أن سألني عن مهنتي قال لي: أنت دكتور. أنت حمار. ولهذا أريدُ أن أسافر عن طريق المطار، مطار العدو، وحين يعود الملك فليعلق لنا المشانق".

وتستفسر من الأصدقاء العائدين عما لاقوه. "لاشيء. لاشيء اطلاقاً. نذهب كل صباح لنصغي الى الاسطوانة نفسها: تراجعون بعد يوم، تراجعون غداً. وأخيراً قررنا العودة لنسافر من هنا" وكانوا يضيفون: "لقد انتهى شهر العسل الفلسطيني الأردني بعد خطاب صاحب الجلالة وطرد أبي جهاد من عمّان" ويكررون عبارة صديقهم: "وحين يعود الملك فليعلق لنا المشانق".

تبحلق، وأنت في المطار، في وجوه المستقبلين. تنظر الى أمك وأختك وزوجها ووالده وبقايا أهلك الذين ظلوا، في يافا، عام 1948، مقيمين. وحين تسلم على الآخرين تخاطب جلالة الملك: "لا يا صاحب الجلالة. ثمة أدلة كثيرة على ان الأرض ليست ارض العدو. انها ارضنا وقد كان آباؤنا فيها قبل أن يأتي اليها العدو من بقاع الأرض كافة" وتدرك جيداً أن صاحب الجلالة لن يعود الى هذه البلاد.

"ها قد عُدتَ أخيراً" تخاطب نفسك ولا تلتفت الى بقايا الوطن الضائع، فقد كنت، في تلك اللحظة مشغولاً بترتيب الحقائب وفي النظر الى وجوه المستقبلين. تتنفس الصعداء، وتلتفت، وأنت تحادث الآخرين، الى جانبي الطريق لعلّك تعثر على اللد في

تزور القدس كل خميس. تجوب شوارعها. تمعن النظر في المحلات التجارية في شارع صلاح الدين، وقد تجد نفسك في شوارع البلدة القديمة، وقد تدخل أحد بيوتها الذي تعرفت على صاحبته ألف نون. وقبل أن تسافر، الى المانيا، لا تنسى قراءة الفاتحة على المدينة التي كتبت عنها ذات نهار قصة قصيرة ترثيها فيها. تتذكر كيف هربت منها، يوم زرتها، ذات سبت، لأنك وجدتها مكتظة بالوجوه الغريبة. لقد فقدت يومها ألفتك التي اعتدتها معها، وأخذت تهرول باتجاه سيارات نابلس، وأنت تهمس: "لقد ضاعت القدس. لقد ضاعت عروس عروبتنا".

" اما زالت القدس على ما كانت عليه قبل أربع سنوات؟ " تسأل الرجل الكبير الذي عاش فيها ستين عاماً. وكانت المدينة، وأنت هناك، تتغير في رأسك فقط: " يا الهي كم من الناس قتل وكم منهم جرح؟ " وتتابع أخبار الانتفاضة يومياً. تقرأ الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية وملحق جريدة جنوب المانيا، وتشاهد التلفاز. ورويداً رويداً أخذت تشعر بالملل، وتدرك أن ما يجري ضرب من العبث والسادية والمازوخية في الوقت نفسه. قتل يومي بلا طائل: قاتل تستبد به الشهوة، شهوة القتل، وقتيل يندفع، بلا تردد، ظاناً أنه، ان لم يفعل ذلك، لا يساوي ذنب كلب. ولم يعد الطلبة الألمان يتحدثون معك، عن الانتفاضة، كما كانوا من قبل يتحدثون. وفجأة ينقلب روتين حياتك الى كابوس. لقد انتقل بعض ما يجري في الوطن الى المكان الذي تعيش فيه، وشارك، فيما يجري، آخرون: عرب ويهود وألمان. وكنت تشاهد مسلسل سيف جدعون الذي يعرضه التلفاز الألماني. "لا. لا أيها السادة. أنا لا أبالغ، اطلاقاً في الأمر. انني أرغب، حقا، في العيش بهدوء، ولكنّ المينورا ونينا وسؤال السيد شرارة، ربيب ألف نون وزوجها أقلقوني كثيراً. لقد اثارت نينا الرعبَ في قلبي، وأكدّ لي السيد شرارة، من خلال سؤاله، أن نينا كانت على صلة بزوج السيدة ألف نون، ولم تخف نينا علاقتها بالسيدة ألف نون وزوجها، فلقد أبلغتني أنها كانت في بيتها. ولكنني، مع أنني أصبحت حذراً، كنتُ أضعف أحياناً: هكذا زرت أندريا، في بيتها في توبنغن، وهكذا زرتُ يوهان، في بيتها أيضا، وان بقيت حذراً".

وتجد الحي الذي تقيم فيه على ما هو عليه. كأنك لم تتغرب أربع سنوات. كان كل شيء على ما كان عليه يوم سافرت. ثمة بيوت قليلة أقيمت في أثناء الانتفاضة. ويبدأ الناس يتوافدون.

تخاطب نفسك، بعد عامين ونصف من عودتك" ليس ثمة من فائدة. لقد تواصلت الكوابيس، وليس هناك من يريد أن يصغي الى غيره" وتصغي الى جارك اليساري

ويتوافد الجيران والأهل ليسلموا عليك. يحادثونك مبدين آراءهم فيما يجري ويسألونك عن رأيك أيضا. وتشاركهم الحديث. تتكلم ببساطة، وحين تقول لهم رأياً مغايراً تلحظ ابتساماتهم الخبيثة و حركات أيديهم الدالة، وتنفق معهم الوقت الذي يحددونه قائماً بواجب الضيافة، ملتزماً بآدابها. وترى الأطفال في اليوم التالي، وتصغي الى أحاديثهم، مستشفا منها ردود افعال زوار الأمس.

ويغضب الأستاذ الجامعي حين تنعته في نصك الذي كتبته عام 1993 بأنه كلب. يغضب غضباً جامحاً. وتهمس: "كيف نغضب أحياناً من وصف ما لشخص نكرة نظنه نحن ولا نغضب حين نستبيح المحرمات". يأتي هذا اليك ذات نهار. يبدي وداً عجيباً نحوك. يطلب منك أن تساعده قليلاً في صياغة نص ومعرفة بحر الشعر عروضاً، تماما كما كان يأتي، من قبل، لتبدي له رأيك فيما كتب، وكنت يومها تقول: "هذا انسان بسيط جداً. انه طيب الى أبعد الحدود" وكنتما تتبادلان الزيارات، عائلية وغير عائلية، وتتحدثان في أمور شتى دون أن تكترث لشكل ملابسه اللافتة للنظر، وحين أخبرتك زوجتك عن تندر الطلبة على ملا بسه قلت لها: "هذه أمور شخصية، وهو انسان طيب على اية حال".

ويقول لك، ذات نهار: "لقد كنت، يوم أنهيت دراستي في مصر، فرحاً جداً. وأظرف ما فيها كان يوم مناقشة رسالة الدكتوراة. بدوتُ يومها مرتبكاً جداً، واتفقتُ مع صديق لي أن يُحضرَ صندوق الكوكاكولا، وأن يقف بالقرب من الأساتذة ليربكهم، بفتح زجاجة، كُلَّما اربكوني".

" لماذا يحزن الناس هنا ويغضبون حين نعيد على مسامعهم ما قصوه علينا؟ ولماذا يغضب الأساتذة الذين درسوا في مصر حين نقول انّ الدراسة فيها على غير ما يرام؟".

ويحدث أستاذُ جامعي زميله على مسمعك قائلاً: "لقد ذهبت لزيارة مشرفي وكانت زوجتي بصحبتي، وحين سألته عن موعد المناقشة، وكان ما زال ينظر في الهدية التي أخذتها معي له، سأل زوجتي: ومتى ستناقش السيدة، ان شاء الله". "ان

ويزورك الأستاذ الجامعي. يبدي لك من الود ما كان يبديه من قبل، ويسألك ان كنت تستطيع أن تقدم له مساعدة. "أن تكتب لي رسالة الى أستاذك الجامعي، هناك، جتى يرسل اليّ دعوة للسفر لمدة شهرين". ويوم عاد من زيارته أحضر لك زجاجة عطر قائلاً: "هذه هدية متواضعة، ولقد فكرت، والله، ان أحضر لك ما هو أفضل، ولكنك تعرف أوضاعنا حين نعود ونفتش على الجسر".

تتصل بأستاذك الجامعي، هناك. تسأله عن طباعة كتابك، وتلاحظ أنه اختلف وتغير، وتتساءل: "ما الذي قاله له الصديق؟ ماذا حدث؟".

وتلتقي في القدس الأستاذ الألماني، الاستاذ وحش الذي جاء ليشارك في ندوة عن الحروب الصليبية. "أعرف هذا الصنف من الناس. انه يدور حول المستشرق كالكلب. يتحدث معه باللغة العربية. ينفق معه معظم الوقت. يطلب منه، ولا شك، دعوة لزيارة المانيا. أعرفه هذا الصنف من الناس، أعرفه جيداً. من المؤكد أنه حين يعلم طلبته يتحدث لهم حديث واعظ خطيب عن الحقد الصليبي لدى المستشرقين الجدد".

وكان الأستاذ، من قبل، يحاورك اشارياً. وكانت الفئات الاسلامية، حين تريد أن تقول لك شيئاً، تختاره ممثلا لها. يضع على رف كتبه، بطريقة بارزة، كتاباً ذا عنوان لافت، ليقول لك أنهم صليبيون، ولهذا يثيرون المشاكل في موضوعك.

لم تكن مضت على عودتك من المانيا سوى سبعة أشهر حين التقيت، في القدس، من جديد، مع الأستاذ وحش. أبدى، في البداية، وُداً عجيباً، وسرعان ما تغير. لقد جلستما معاً لتشربا، في شهر رمضان، القهوة. وكان زميلك الأستاذ الجامعي ينظر اليك نظرة غاضب لأنك تجاهر، هنا، في القدس، بالمعصية. وتقول للاستاذ وحش: " سوف أصبح في نظر الناس مارقاً. ولهذا الأمر يمكن أن أشوه في هذا الوطن".

" عجيب أمرنا نحن. أمرنا عجيب جداً. نشتم الاستشراق والمستشرقين. نكتب عنهم سلباً، وحين يأتون نبدي لهم وداً عجيباً. لا. لا. أنا لا أقصد الجميع. هناك ليبراليون وهناك مسلمون وهناك ماركسيون. أنا شخصياً لا ألوم شخصياً ليبراليا يحادث مستشرقاً ويحاوره ويزوره ويدعوه الى مكان عمله، ويطلب منه دعوة لزيارة بلده، فالليبراليون ينظرون الى الغرب على أنه مثلهم الأعلى، على الأغلب. ولكن الذي يزعجني ما يصدرُ عن أولئك الماركسيين الذين أخذوا يترددون على

" والله لقد قُلتُ عنك كل ما هو ايجابي. لقد تحدثتُ مع الأستاذ وحش، وسألته عن طباعة كتابك، وطلبت منه أن يساعدك، والله على ما أقول شهيد".

" انّ كتابة رواية واقعية في وضع مثل هذا يبدو ضرباً من الجنون. كم من عدو سيصبح لك حين تكتب رواية يعرف الناس، حين يقرأونها، شخوصها؟ لا. لاتذكر الأسماء حين تكتب. ولكن كيف سيميّز القارىء بين شخصية وأخرى حين تشتركان في اللقب نفسه. ثمة عشرات الأساتذة الجامعيين الذين يمكن أن تكتب عنهم، وثمة عشرات الفتيات أيضا. لا شك أنّ الأمر مزعجٌ جداً، لا بدّ من لعبة فنية تنقذك من هذه الورطة". تخاطب نفسك.

" لا. لا. انا لستّ كاتباً روائياً، وما رغبتُ يوماً في أن أكون كذلك. انني أكسّر الزمن بطريقة مزعجة ومربكة جداً للناقد الروائي، فماذا سيقول القارىء؟".

وتهمس: "ليس ثمة من جدوى، والصمت أجدى". تصحو في الصباح مبكراً. تفتح النافذة المطلة على سطح الجيران الذين نصبوا مدافع بلاستيكية لترى الاتجاه الذي وجهت اليه. تبصرها تارة باتجاه الشرق وطوراً باتجاه الغرب. "هذه المدافع لا تختلف كثيراً عن مدافع الأنظمة العربية" تخاطب نفسك وتتابع: "انها ليست سوى أشكال تحرك في المناسبات ليراها الجمهور الذي قد يكون، اذا ما كانت هناك احتجاجات، ضحيتها". "الأمور مرتبة بطريقة عجيبة، ومن أنا حتى أكون محور العالم؟" وتسترجع الحوار الذي عقد مع زوار الأمس، هؤلاء الذين قالوا ما سمعوه منك لتلك القوة الخفية. "اني، اذن، غربي ولهذا فان وجهة المدافع، اليوم، نحو الشرق".

" هل كانت الأمور، في أثناء غيابي مبرمجة بطريقه عجيبة ؟ لقد عرفت من خلال اتصالي بطفلتي أن الهاتف، هذه المرة، مراقب من الألمان. لقد لقنوا الكبيرة كلاما معينا وطلبوا منها أن تسمعني اياه، وحين تفوهت به قطعوا المكالمة. وقد سألتها، يومها ، ان كانت هي التي أنهت المكالمة فأجابت بالنفي، وتأكدت من الأشارة التي أعطاني مراقبو الهاتف اياها من أنهم سجلوا المكالمة. و من يومها أدركت أن المكالمات لاتسمع فقط و انما تسجل".

تتأفف و تشعر بحزن لا مثيل له: " ليشوهوني كما يريدون. ليقولوا ما رغبوا في قوله. و لكن لماذا لا يزجّون الطفلة في الأمر ؟ لماذا يحولونها الى مخبر ؟ أبناء

لا تفكر في أمر الفتاتين كثيراً. انس أنهما موجودتان. لا. عليك ألاّ تضعف اطلاقاً. أنت تعرف جيداً أن النسوة هُنا يخلفن كثيراً حتى يضغطن على الرجل، حتى لا يفكر في الزواج من امرأة ثانية. ها هم يمارسون تخلفهم من جديد. ها هم يستخدمون الطفلتين ورقة ضغط عليك. ولكنك تدرك أنها ورقة خاسرة. ذلك الأحمق الكبير لا يستحي اطلاقاً. كان بأمكانك أن تمّرغ رأسه في الوحل. كانت أخته تقول لك: " لقد قرر أن يلتزم بوصية أبيه، وألاّ يزوج أية واحدة من أخواته الى أبناء عمه. لقد أراد أن يتزوج من ابنة عمه فرفضت وتزوجت من شخص آخر، وها هو ينفذ وصية أبيه، ويعبر أيضا عن حقد دفين". ولا يختلف الآخرون عنه كثيراً. انهم يعرفون أنهم على خطأ، ولكنهم يتجاهلون الحقيقة. يصلي الناس هنا ويصومون ويذهبون لتأدية فريضة الحج وقد يؤدون العمرة مراراً ويخرجون من طيبات أموالهم ما استطاعوا ولكنهم ... ويحدثونك في الوقت نفسه عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً وارتكب الموبقات جميعها، وعلى الرغم من ذلك فقد غفر الله له حين قتل الرجل المائة.

ويأتي الأصدقاء أيضاً ليسلموا عليك . يبدون لك وداً وتقديراً. ويظنك أحد الجيران مسؤولاً كبيراً في الحركة الوطنية. يحدثك عن ابنه وأبناء اخوته الذين يقبعون في السجون. يقص عليك بعض ما قام به شباب الانتفاضة. وفجأة تتغير لهجة الحديث. فجأة يخاطبك قائلاً: " ان أخي رجل مريض، وهو يحتاج الى عملية جراحية، واليد قصيرة " ويتابع :" وما زال ابنه يمكث، الى جانب أبنائنا، في السجون ." وتصغي اليه وتدرك ما يرمي اليه، وتخاطب نفسك بعد أن يغادروا: " انه يريد منك أن تتدخل في الأمر حتى تساعده في الحصول على مبلغ من المال".

"هؤلاء الذين يمدحون المنظمة أو يذمونها لا يفعلون ذلك لأنها تستحق المديح أو الذم. لا يفعلون ذلك خالصاً لوجه الله. ان المديح والهجاء، في جانب منهما، مرتبطان بما يحدث مع المادح أو الهاجي".

" لقد ساعدونا والله يا أخي الشعب الفلسطيني شعب عظيم والقيادة واعية وحكيمة وحريصة على مصالح شعبها. أبو عمار مناضل حقيقي. انه أبٌ لنا جميعاً".

" انهم لصوص وقوادون. لقد سافرتُ ورأيت العجب. أمهلونا طويلاً قبل أن يدفعوا لنا مستحقات أبنائنا. وهناك خنازير يستغلون نساء الشهداء والمساجين. نطلب المالُ منهم، كما لو أننا شحاذون. وهم ينفقون منه بلا حساب. انهم يقيمون

"أحد العائدين الكبار الذي كان من قبل يسارياً استأجر بيتاً ضخماً في رام الله بمبلغ خمسة آلاف دينار شهريا؟ ثمة خدم وحشم، وهناك قسم خاص لحراسه. لو تنظر الى سيارته وملابسه، ومع ذلك يضنون على السجناء هنا وعلى أهاليهم".

وتتساءل، وأنت تمر بالقرب من منـزل الصبية التي تحصي عليك حركاتك وتؤولُ أقوالك بعد أن تنقلها الى جهة ما، تتساءل عن الفارق بينها وبين أولئك اللواتي عرفتهن هناك؟ " انّ من ينقل الحوار الذي يجري بينك وبينه لأية جهة كانت، حتى لو كانت جهة وطنية، ليس سوى مخبر. لا. لا. أنا لا أبالغ في الأمر حين أزعم أننا جميعاً تحولنا الى مخبرين".

تشرب القهوة في ساعات المساء. تدخن سيجارة وتنظر الى جهة الغرب، فثمة منظران يسحرانك في هذه الدنيا: شروق الشمس وغروبها، ويكون الغروب أجمل حين تكون على شاطىء البحر، حين تسقط الشمس في البحر. " كانت فلسطين يومها أجمل البقاع التي رأيت، على قلة ما رأيت. سرت على شاطىء نتانيا وحيداً. لاحظت أوراق الخبيزة في مكان غير بعيد من الشاطىء وقارنتها بأوراق الخبيزة التي كانت تباع في نابلس، وكان الفارق واضحاً. كانت كبيرة الى درجة لا تصدق. وأخذت أنظر الى الشمس الغاربة، وقلت: ها هي الشمس تسقط في البحر". وتقول الصبية حين تشاهدك تشرب القهوة وتدخن: " انها هو الذي يتابعني"، "وكانت الفصائل تتابع حركاتك". يخرج الشاب الذي خرج من السجن حديثاً، من بيته في ساعات المساء ويمشي في الشارع، حتى اذا ما خرجت تعقب خطاك، وذهب الى الفصيل ليقول له: لقد سار في الاتجاه الفلاني.

تجلس في مكتبك، وتتجاذب وزميل لك أطراف الحديث. يوحي لك أنه يعرف حركاتك كلها، يتحدث حديث رجل يخفي شيئاً ما وراء الكلمات التي يتفوه بها، ويسألك: " هل تعرف السائق ابن بلدتنا؟" ويتكلم عنه: " انه يذهب اليها في نهاية الأسبوع، ويعود في بدايته بضّاً مسروراً" وفجأة يحدثك عن نفسك: " وها أنت تبدو في بداية هذا الأسبوع نشيطاً مسروراً" " أيها الأستاذ الجامعي انّك تذكرني بيوهان. فهل قرأت رواية تداعيات ضمير المخاطب؟ وأحياناً كثيرة لا أرى كبير فرق، في السلوك بينكما، غير أنّ يوهان جميلة وأنت قبيح جداً. ويوهان في تجسسها توقظ في المرء حاسته الغريزية، تجعله يرى جانبين في الانسان: الجمال والشر، وأما أنت...".

وتكرر لازمتك: "ليس ثمة من جدوى، والصمت أجدى".

تدعوك قريبتك، بعد أيام من عودتك، لزيارتها وتناول طعام الغداء مع عائلتها. وتلتقي بنابلسية قدمَت، منذ فترة، من أمريكا. تتذكر أنك التقيت بها منذ أربعة عشر عاماً. كنت يومها منتدباً من مدرستك لحضور دورة في معهد المعلمات الحكومي، في رام الله، وتعرفت، خلال الفترة التي لم تتجاوز أسبوعاً واحداً، اليها. وكانت المعرفة عابرة وسطحية. " الأخ من نابلس" " وأنت كذلك" "نعم". وكانت في ريعان الشباب. فتاة مرحة بضة كثيرة الحركة تقبل على الحياة، وذكرتك بفتيات المدينة اللواتي درّستَ فيها. " بعيداً عن نابلس تتصرف الفتيات بحرية. يمارسن حياتهن كما يُردنَ، فلا رقيب. وغالباً ما يصادقن شباباً من غير شباب المدينة" يقول لك صديق ذات نهار، وتتبع هذه الظاهرة لتلاحظ ان كان صديقك محقاً في رأيه، وتسأله عن السبب:" انّ شباب المدينة لا يحفظون سراً. وحين يعودون، الى المدينة، يقصّون عن مغامراتهم بفرح، ويفرح الأهل والأصدقاء لكلامهم ويعتبرونهم رجالاً، فليس هناك ما يعيب الرجل، وأما الفتيات فيصبحن ساقطات أخلاقياً، وقد تدفع الواحدة منهن حياتها ثمناً لسلوك ما".

" لقد التقينا من قبل" تقول لها وتتابع: "كان ذلك في صيف 77. كنّا يومها، في دورة، في معهد المعلمات الحكومي. وما زلتُ أذكر تلك الحادثة. كنتِ يومها، مساءً، تركضين فرحة وتصفرين، وقد أزعج هذا معلماً محافظاً ورأى فيه خروجاً عن الأخلاق، وقد عقب على سلوكك قائلاً : انّها بلا أخلاق".

وتدرك أن قريبتك، في غيابك، قد طلبت منها، حين تأتي، أن تراقب حركاتك جيداً" اننّا نودّ أن نتأكد مما يقال عنه".

وتعرف وأنت في المانيا، من يوسي وحاتو، أنّ الأستاذ وحش أخبرهما أن مشكلة نفسية قد ألمت بك. تعلم أيضاً أن زوجتك، حين عادت، وقد قررتما الانفصال، أبلغت أهلها وأهلك أنك لم تكن، هناك، كما عهدتك. " غدا حين يأتي عائداً سترون أنه ليس الشخص الذي عرفتم" وكانت تدافع عن نفسها.

" ان الناس، هنا، في بلادنا، فصاميون الى أبعد الحدود. تصوَّر يا أخي أننا نفعل الشيء، ونقول عكس ما فعلنا" يقول لك، ذات يوم، صديق صديقك. كنت يومها ما زلت طالباً في الجامعة، وقد زارك هذا الريفي القادم من قرية أبي فلاح، وأقام معك فترة قصيرة غادر، اثرها، الى الاسكندرية لتأدية الامتحانات التي لم يستطع أن يؤديها في بيروت، بسبب الحرب الأهلية. وعاد بعد أسابيع قليلة وأخذ يقص عليك وعلى أصدقائه بعض ما جرى معه. " يصوم المصري في رمضان، ولكنه في الوقت نفسه لا يتوانى عن سؤالك فيما اذا رغبت في مضاجعة فتاة. وما لم أستسغه،

" وأنا ما زلتُ أذكرك يا فائز المصري. لقد ذهبنا، بعد يومين من تعارفنا، هناك في مدينة قلعة الحرية، الى مسجد الأتراك لنتعرف على حياتهم. وفي الطريق تصفحنا معاً المجلات العديدة، وأمعنتَ النظر في صورهن، صليتَ صلاة الجمعة، بعد أن تناولنا معا طعام الغداء في الجامعة، وسألنا إن كان اللحم لحمَ خنـزير، تماماً كما كنّا نقرأ لوحة الاعلانات لنعرف طبيعة اللحم. وبعد ذلك غذذت الخُطى لمقابلة صديقتك اليهودية واقتسمتما معاً السرير. ولكننا، يا فائز المصري، لم نكن نختلف، عنك كثيراً، حتى عبد الله الجزائري وقع في حب الفتاة البلجيكية التي أحببتَ، ولو استطاع أن ينام معها لما تخلف عن ذلك".

وتذهب، وأنت طفل، الى الجامع لتصلي. وتغادر المسجد فيما ترتفع أصوات بعض المصلين الذين بحثوا عن أحذيتهم فما وجدوها. والله يا أخي ان جزءاً ممن يأتون الى الجامع لا يأتون لتأدية فريضة الصلاة، انهم يأتون لاستبدال أحذيتهم المهترئة بأخرى جديدة. يا أخي هؤلاء كفرة. يسرقون وهم في بيت الله".

وتبلغ زائرة قريبتك، بعد أن أمضيتما معاً وقتاً تثرثران، أنك على ما يرام وأن ما يُشاع عنك ليس صحيحاً، وأنك متوازن الى أبعد الحدود.

" لا. ليست زوجتي هي المسؤولة الوحيدة عن اشاعة مثل هذا الكلام. ثمة أطراف أخرى، لها مصلحة في تعميمه وترويجه، والاّ فكيف أقول ان الدكتورة ألف نون وزوجها غير بريئين، وأنه على صلة بالموساد الاسرائيلي، ولهذا أرسل الفتيات اليّ. كيف أقول هذا الكلام ولا يقال عنّي ما يقال؟ وكيف أبلغ الآخرين بأن فولا رغبت في اقامة علاقة جنسية معي يوم استدعتني الى منـزلها، وأخذت تقبلني ومدّت يدها ...، كيف أقول عنها هذا وأنقله الى الاخرين ولا تتهمني بأنني حشاشٌ وأنني لا أكتب، شخصياً، أطروحة الدكتوراة؟ وكيف أخيب آمال فولا التي ما انفكت تراودني عن نفسي؟ هل أتوقع أن تقول إنني ملاك! ما زلت أذكر مكالمتها الهاتفية. قالت لي فولا بعصبية واضحة: أنني أقترح عليك أن تراجع طبيباً نفسياً".

" هذه الزوجة غبية جداً " تهمس في سرك وانت تصغي اليها تحدثك عن الايام القادمة . تقول لها، وانت هناك، تقول لها ذات مساء :" نخرج الليلة لنقضي المساء معاً في مقهى هادئ ،فلقد ابدى الامريكي وزوجه استعدادهما للبقاء مع الصغار " . " جميلة هي المانيا . اليس كذلك ؟ ثمة هدوء في هذا المقهى ، ويبدو ان المرء، بين وقت وآخر يحتاج الى ان ينفق بعض الوقت مسترخياً في مثل هذه المقاهي الرومانسية " ولا تفاجأ، وانت في هايدلبرغ، على ضفة النهر، حين تعرف ان

"لا ايتها اللعينة . انت تدركين جيداً سبب كل ماحدث ". تقول بيرجيت التي جاءت لزيارتك بناءً على طلب من الالمان، تقول لهم: " انه يبدو متوازناً جداً، وهو لا يفكر في الانتحار اطلاقاً . يتحدث بهدوء، ويعرف مصادر رسالته كلها، ويأكل جيداً وينام ويثرثر في امور شتى ".

وتخاطب نفسك، من جديد : " سوف تلتزم الصمت اذن. لا تصغ الى كلام الآخرين، هؤلاء الضيوف الذين بدا كلامهم مثلهم : ثقيل الظل والوقع. دعهم يقولوا ما يريدون قوله واقرأ، ان رغبت ما بين الكلمات، واعزف عن هذا ان اردت، وانظر اليهم باحتقار شديد ما داموا لا يحترمون انفسهم ".

ويزورك الرفاق . يخوضون معك في موضوعات شتى. تتوقفون طويلاً عند الاحداث التي شهدها الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية. يقولون، وهم يخاطبونك: " لا بد وان يعود الوضع الى سابق عهده". " لا اعتقد ذلك ايها الرفاق! ليست الامور كما تتصورون. لقد أحزنني ما رأيت". تتساءل، وأنت هناك، في برلين الشرقية، عمّا كان الرفاق يقولونه بعد زياراتهم المتعددة، وتهمس "حين أعود سأسأل الرفاق من الذين درسوا في الدول الشرقية أو زاروها مراراً ان كانوا عرفوا فيها غير المرأة وخطاب الحزب؟" وتبصر جمال مباني برلين وكآبة الحياة فيها. " اللعنة عليكم أيها الرفاق. لقد كررتم، على مسمعي، كلاماً مغايراً لما أرى. أين هي جنة الاشتراكية؟ هل كنتم تسيرون في الشوارع؟ وهل كنتم تجالسون الناس لتصغوا الى ما يقولون؟ اللعنة عليكم لقد أخذت أجوب شوارع براغ أيضاً. شاهدت مباني جميلة وأناساً كئيبين. وفي براغ أنفقت ماركات قليلة في مطاعمها الفخمة وفنادقها التي كنتُم تزورونها وتثرثرون فيها عن الاشتراكية والوطن والأمين العام للحزب". " لقد فجعت، وأنا في برلين الشرقية. قلت وأنا أزورها للمرة الأولى، في شباط 1988 ان الاشتراكية لن تعمر طويلاً، وليس هناك حتمية تاريخية. وشاهدت، في زيارتي الثانية، في حزيران 1990 ما آلت اليه، وحزنت كثيراً، وأنا أفعل ما يفعله الناس الذين أقدموا على شراء بقايا البضائع من المحلات الكبيرة التابعة للحزب.

تجلس في ساحة (الكسندر بلاتز)، مساءً، متعباً من تجولك في المتجر الحكومي. تبصر الشمس وهي تغرب وتبحلق فيها جيداً. تجلس وحيداً كأنك جندي مهزوم. تخسر معركة كنتَ، وأنت هناك، تشارك فيها، وأنت على يقين من أنك رابحها لا محالة.

يقدم لك، صبيحة اليوم التالي لزيارة الرفاق، أحد أصدقائك سيجارة امبريال. تبتسم له وتقول: " لا. لست امبريالياً. لم أتحول بهذه السرعة. لقد أبديت، أمس رأيي فيما حدث وفيما رأيته هناك، واذا كانوا فهموا من كلامي أنني أؤيد الامبريالية فهم مخطئون الى حد بعيد جداً". وتخاطب نفسك: "ان سلوك الرفاق يعزز لدي ما أخذتُ اكتشفه مع الأيام: اننا شعبٌ منافق. لسنا جريئين في مكاشفة الذات ومساءلتها، تماماً كما أننا لسنا جريئين في وضع النقاط على الحروف. نحن ملوك لغة الاشارة. لا. ليست لغة الاشارة لغة الأذكياء. انها لغة الجبناء والمنافقين. فأنت تشتم الرجل وتهتك عرضه وقد تحوله الى مخبر وخائن، ثم، اذا ما التقيته في الشارع، سرعان ما ترحب به، كما لو أنه أصبح ملاكاً". وتلتفت الى الرفاق الغائبين الحاضرين وتخاطبهم: " لا أيها الرفاق! أنا لا أتكبر على أهالي المخيم وحياتهم اطلاقاً. لقد نشأت في المخيم، وكبرت بين حواريه، وعشتُ في أزقته، وعانيت ما عانيتم وما تعانون، وما زلتُ أذكر المشاكل العديدة بين سكانه، تلك التي كانت تنشأ لشح في المياه أو لضيق في المسكن أو للمبادرة في استلام الطحين أولاً. نعم ما زلتُ أذكر هذا كله، واذا تحدثت عن حياة سكانه، الآن، حديثاً لا يروق لهم، فانما أقوم بذلك لأنني أرغب في أن يتخلصوا من هذا الوباء الذي فرض عليهم. انني أرغب في أن يعيشوا حياة تليق بهم، أبناء الساحل الفلسطيني".

لماذا تلح عليك، منذ عودتك، فكرة الكتابة عن المخيم؟ كانت شوارع المدينة التي أنفقت فيها من عمرك ثلاث سنوات تزين في ذكرى البوغروم، بالنجمة السداسية. وكانت المانيا كلها، في ذكرى الهولوكست، تدين الماضي. وكنت تعرف أن عدد اليهود، في المدينة التي كنتَ تقيم فيها، لا يزيد عن بضع مئات، كانوا يقيمون الدنيا ولا يقعدونها. "ان ذاكرتنا ذاكرة عذراء. هكذا يمر 1993/11/2 دون أن نذكر الأجيال الجديدة بدلالته. وهكذا أيضا تمر ذكرى صبرا وشاتيلا دون أن نقرأ الفاتحة على أرواح ضحايا المخيمين".

وأنت هناك، في برلين، تزور مبنى البرلمان الألماني في عهد هتلر، وهناك تشاهد العرض المستمر لأحداث الحرب العالمية الثانية، وتلحظ أنّ ثمة تركيزا على ما ألمّ

تضع مخططاً لكتابة رواية عن المخيم وعن سكانه. من أين جاؤوا؟ كيف كانوا، هناك، في مدنهم وقراهم يعيشون؟ ماذا ألمّ بهم هنا؟ كيف بدا المخيم وكيف تطور حتى وصل الى ما هو عليه الآن؟ عن عادات أهله القديمة والجديدة. عن تقاليدهم في الأفراح والأتراح. وتمزق المخطط الذي رسمته " سوف يتهمونني بأنني عنصري، فالعنصرية أخذت تتفشى بين الفصائل نفسها، يميناً ويساراً".

وتلقي نظرة على المخيم كما عرفته للوهلة الأولى، لا كما كان عليه، وان كنتَ أصغيتَ الى حياةَ الناس في الخيام، الى أيام الثلجة والأمطار الغزيرة التي تساقطت في عام 1950. وحين يطل رابين، رئيس الوزراء الاسرائيلي، في 1993/9/13 ويتكلم بالانجليزية قائلاً: "كفى ارهاباً. اننا نريدُ أن نزرع ونبني ونربي الأطفال ونعشق الناس!" تخاطبه، وأنت في غرفتك، قائلاً: "ينبغي عليك أيها السيد أن تزور المخيم لترى ما الذي فعلتموه بأهله".

"لقد رأيت، وأنا أزور داخاو، أسرة الخشب التي نام عليها اليهود. كان الجوُّ صافياً في تشرين الأول من عام 1990، كان الجو صافياً، أو هكذا بدا لي وأنا أنظر في سماء ذلك اليوم، وتذكرت العاشر من حزيران عام 1967، تماماً كما تذكرت فراشنا، ونحن نقطن في المخيم. كنّا عشرة اخوة ننام في غرفة واحدة، ولا أسرة خشب. نبول أحياناً في ثيابنا، لأننا نخاف، أن صحونا ليلاً، من الذهاب الى الحمامات المشتركة. وكنت أنظر الى غرفة الغاز التي وضع هتلر ضحاياكم فيها فتذكرت غرف السكن في المخيم، تحسستُ رأسي أبحث عن واحدة، وتذكرت لماذا كان موظفو وكالة الأمم المتحدة، ونحن صغار، يرشون رؤوسنا بتلك الماد التي تقتل القمل والسبان. وتذكرت الغابة وقلت: حشرات تتغذى على حشرات. الألمان وأنتم ونحن".

وتخاطب الرفاق من جديد : " ان الحل الصحيح للمشكلة الفلسطينية يبدأ، من هنا، من المخيم : واذا اراد الاسرائيليون حقاً، ان يجدوا حلاً عادلاً ومنصفاً فليفكروا بهؤلاء الناس كما فكروا في يهود الشتات. لا. ايها الرفاق انا لا اتكبر على المخيم اطلاقاً ".

ويسألك، وانت في توبنغن، احد الطلبة الذين ينتمون الى حزب الخضر، حين يفاجأ بكلامك الذي قلتة له، يسألك : " أأنت القادم من بلاد العالم الثالث تقول هذا ؟ " وتجيبة : " نعم! انا اقول هذا. اننا جزء من المشكلة. صحيح ان الدول الامبريالية تنهب ثروات العالم الثالث، ولكن ابناء هذا العالم ليسوا سوى عبيد لحكامه الذين هم بدورهم تابعون وعملاء، لتلك الامبريالية. اننا ننافقهم ونجعل منهم آلهة. هل تصدق انني، وانا طالب،لم احي ذات نهار، حياة الطلبة التي تحيون. انك وحيد ابويك، وقد يكون لك اخ، اما امهاتنا فيفرخنَ كل عام ديكاً او دجاجة!! "

وتقول للصديق الذي قدم لك سيجارة امبريال قاصداً : " شكراً ايها الصديق، فأنا لا ادخن."

" لقد نكث الالمان بوعدهم " تنهي دراستك وتحصل على شهادة مؤقتة وتغادر بعد ان تقول للمسؤلين هناك : " اغادر لتستريحوا " وتهيىء مخطوطة الكتاب، وتسلمها لفولا التي تخبرك ان كل شيء على ما يرام.

وتبدي، حين تذهب الى رئيس الجامعة، اكبر قدر من الهدوء، تحادثه بمنطق الفلاسفة وحكمة لقمان. كانت الزيارة الاولى بعد عام ونصف تقريباً من عودتك. وتخاطب الرئيس بهدوء. " ثمة احترام بيننا، وثمة ود قديم. ما زلت أذكر لقائي الأول به. كان شخصاً هادئاً وديعاً متواضعاً الى حد بعيد. وغالباً ما كانت اللقاءات عابرة. نتبادل التحية ونتحدث قليلاً، وعندما أسألُ عنه أجيب: "يبدو غير متعجرف، ولم تختلف الأمور حين عُدتُ من سفري. لقد كان نائباً للرئيس. وأذكر أنه سلّم عليّ سلاماً عادياً، لا حاراً ولا بارداً. ولم أكترث كثيراً لتعيين مجلس الأمناء رئيساً جديداً وعزل آخر. تعيينه متى شاؤوا وعزله متى شاؤوا كنت أقول هو حر ما دام يرضى هذا. هذا شأنه وثمة أناس لا ينظرون إلى الأمور بحساسية مفرطة. ثمة وزراء في عالمنا العربي يعينون بقرار ويقالون بآخر".

"دُمىً. مجرد دمىً. تصور أن توافق على كتاب اقالتك وأنت تستلم كتاب تعيينك. هذا هو الدكتاتور العربي" يقول صديقك الدكتور الجامعي ويضيف: "ليست الشعوب العربية بحاجة الى أن تفكر أو تعمل. هنالك ملك يفكر عنها ويحلم عنها أيضاً ويحارب، اذا حارب يوماً ولن يفعلها، عنها". وتنظر الى الدكتور نفسه وهو يتكلم من على شاشة التلفاز بعد أن أصبح وزيراً: "لم تختلف عن الآخرين. لقد احتججت حتى تصل، وعندما وصلت أصبحت كاتبَ خطابات الملك وخطابات أفراد عائلته" وتصغي الى الكلمة التي يلقيها بمناسبة أربعين أم البلاد وتهمس: "كاتب السلطان يخرج من كم كاتب السلطان. وها أنت خير خلف لذلك السلف".

"ان مشكلتي لا تكمن في البلاد التي أنا، الآن، فيها. انها تكمن هناك، في البلاد، التي كنت فيها".

تحاور الألمان، هاتفياً، مدة عام ونصف. تتصل بذوي الشأن هناك، وتظل، خلال هذه الفترة، بعيداً عن رئيس المؤسسة: "لا دخلَ له في الأمر" تهمس" وما زال الألمان يراوغون. انهم يبتغون معرفة الحقيقة!".

وتحدثك فولاً بفرح، حتى اذا ما قلت كلاماً لا يعجبها ابدت غضبها. "ما زالت فولاً تحلم وما زالت تأمل وتنتظر مكالمة تخبرها فيها انك عائد".."كانت فولا تبدي ارتياحاً كبيراً وانا اتكلم بهدوء كلاما يشعرها انني سأسافر، الى المانيا ثانيةً، وفي مثل هذه الحالة كانت تنهي عبارتها قائلة "نراك ثانية". أنت تعرف أن الألمان دقيقون جداً في كلامهم، وأن دقتهم تنعكس على لغتهم، خلافاً لنا نحن العرب الذين نقول سأسافر غداً، سواء أكان السفر بالسيارة أو بالطائرة أو مشياً على الأقدام، أما هم فيقولون سأسافر أو سأمشي أوسأطير. وعندما تقول هنا انك تعلمتَ الدقة في الكتابة منهم يسخر الناس منك، ويتهمونك بأنك امبريالي وعبد يعشق عبوديته. وتعرف أكثر من غيرك أن فولا كانت تقف عند كل صغيرة، وكانت تسأل عن كل فاصلة ونقطة".

ولا يختلف الأستاذ وحش عنها. يبدو تارةً مسروراً منك، وطوراً غاضباً. تارةً يناديك باسم عائلتك، وطوراً باسمك الأول خالياً من أي لقب، وثالثة قد يستخدم اللقب. "لا يختلف الألمان دون أن يكون هناك خبر ما قاله لهم شخص ما. كنت تعرف هذا ولكنك أيضاً كنت تستغرب الأمر وتصاب بالدهشة" وتتساءل: " ولكن كيف يصدقون الآخرين بهذه السرعة؟ ألا يفكرون، مثلاً، أن أعداء المرء في هذا الوطن أكثر من أصدقائه؟ ألا يدركون أن الفصيلية جنت علينا جناية كبرى؟ لو كانوا حقاً يعرفون لربما اختلف الأمر قليلاً". وأنت تعرف أن الضفة سوق للدول كلها، وأن كل من يرغب في الحصول على منحة، لمدة شهر أو شهرين، يذهب الى القنصليات ويهرف بما لا يعرف. وأنت تدري أيضاً أننا رخيصون رخصاً لا يوصف. أنت لا تبالغ في هذا كثيراً.

تقول سكرتيرة الرئيس على مسمعك عبارة واحدة، تدرك من خلالها أن مشكلتك ليست في الدولة التي كنت فيها وحسب، وتكتشف ان السوس ينخر في عظامكم هنا. "تبدو مشكلتك صعبة الحل". "لقد كانت الاتصالات بين الجامعة والألمان، وأنا هناك. والآن أعرف أنها ما زالت مستمرة. ويبدو لي أن السبب الرئيس، في مشاكلي كلها، ينبع أيضاً من هنا" وتغادر مقر الرئيس شاكراً السكرتيرة، وتتابع

ولا تختلف السيدة شجرة الحديقة التي تقيم في القدس، في موقفها وفي سلوكها، عن فولا والأستاذ وحش. تتصل بها فتلقي اللوم على الجامعة التي تدرس فيها، وتعرف أنها كانت، في غيابك، وسيلة الاتصال بين المؤسسة الألمانية والجامعة.

" يريد الألمان أن يوصلوني الى ما يلي: ان أضع اللوم كله على الجامعة التي أعمل فيها، وعلى فولا. هذا ما يبدو لي من خلال كلام شجرة الحديقة. وأنا لا أرى الأمور بهذه البساطة. واذا أردت أن أكون شجاعاً وجريئاً فينبغي أن أقول الحقيقة كلها، ولتذهب الشهادة والدكتوراة الى الجحيم".

وتقرر، بعد عام ونصف من مماطلات الألمان، تقرر أن تذهب الى السيد الرئيس: "لعله يتفهم أموري" وتخاطبه قائلاً: "أيها السيد الرئيس، لقد أرسل لي الألمان فاكساً يوضحون لي فيه أن الوثيقة ستصل بعد حين، فما رأيك؟" ولا تصغي، وأنت تتكلم، الى ما كان الآخرون يقولونه لك: "لا. لا ينبغي الاصغاء الى أولئك الذين يحثونني على أن أرفع صوتي أمامه. ينبغي أن تحل المشكلة بالحوار، حتى لو كان الواقع كله أسود" وتواصل مخاطبته" واذا نكثوا بوعدهم، ولم يرسلوا الوثيقة فسأسافر في الاجازة الى ألمانيا، لأحضرها".

تتأمل الرئيس. تلاحظ ردّة فعله. تريد أن تتأكد مما يقال عنه. ويتأملك أيضاً. يريد أن يعرف ان كان ثمة فصيل وطني يقف الى جانبك، ويريد أن يعرف ان كنت شرساً تشكل خطراً على حياته. " اننا نحيا المأساة بأبعادها كلها. تصوّر أن رئيس الجامعة لا يختلف في طريقةتعامله مع العاملين فيها عن طريقة تصرف الفئات الاجتماعية الأخرى وطريقة تصرف الأشخاص العاديين". ويجيبك الرئيس، حين يلحظ أنك تتكلم بهدوء: "لا."

"لن تحل مشكلتك الاّ من خلال تهديد الرئيس" يقول لك بعض زملائك، وتخاطب الرئيس من بعيد: "اللعنة عليك، وعلى مؤسسة يقودها مثلك".

"على المرء أن يتحول الى أزعر وشرير. عليه أن يوهم الآخرين بأنه قوي وأن قوة ما تقف وراءه، والا فلن يحصل على حقوقه".

وتجرب أن تلجأ الى طريق التخويف. ترفع صوتك، وتلاحظ أنّهُ تحول الى أرنب, "يا الهي كيف يرضى أن يكون في هذا الموقع؟" وتتراجع، في المرة القادمة، عن نهج هذا السلوك. "لا. لا ينبغي أن أفعل هذا. أن أكون استاذاً جامعياً وأزعر في الوقت نفسه. اللعنة على الشهادات كلها. عليّ ألاّ أصغي إلى ألاخرين. لست سادياً ولا أرغب في أن أكون رامبو. ليتصرف كما يشاء أما أنا فينبغي أن أحافظ على

ويحزنك اختلاف لهجة الرئيس، بين زيارة وأخرى، كثيراً. "ايها الدكتور" يخاطبك حين يشعر أن قوة ما تدعمك، ويضيف: "سوف تسير أمورك كما تشاء، وانا معني بمساعدتك كما ساعدت غيرك" ويحضر لك القهوة ويحدثك باحترام.

ويختلف الأمر في الزيارة التالية. يحاول أن يعتذر عن مقابلتك. يبدو شخصاً آخر. يتكلم بلؤم فاضح. "هناك قانون ينبغي أن يطبق على الجميع".

" اللعنة عليك يا أيها الرئيس". وتفتح الباب حين يعتذر عن مقابلتك وتدخل. يرتبك ارتباكاً واضحاً. تختلف ملامح وجهه، يخاطبك بلهجة خائف قائلاً: "اجلس يا دكتور. اجلس. أنت تعرف أننا نريد مساعدتك" ولا تصغي الى كلامه، تقول له عبارةً واحدةً وتغلق الباب، وراءك بعصبية، وحين تذهب الى مسؤول آخر، يخبرك أن الرئيس اتصل به لتسوية أمورك.

"امّا ان تنضم الى تنظيم أو ...". يقول لك صديق. تكتشف هذه الحقيقة وأنت هناك. تكتشفها قبل اندلاع حرب الخليج وبعدها. يبرز صدّام قوته فيبدي الآخرون استعداداً لمحاورته. ويزورك الدكتور الأردني، بناءً على طلب من الأستاذ وحش، فتلمح له بهذا ليخاف الجميع. وتدرك أن القوة وحدها لا تجدي. لابدّ من ذكاء. لابدّ من مراوغة ولهذا انتصر الأمريكيون بعد ذلك: "الآن فليمت العرب قاطبة"!".

يقيم الدكتور الأردني في غرفتك. يحصي عليك حركاتك كلها، وعندما جربوا في جسدك بعض الأدوية خاطبتَهُ قائلاً: "يبدو أنهم لا يحترمون الاّ القوي، ويبدو أنّ أبا نضال البنا ضرورة وطنية!".

ويختفي الآخرون من الشوارع. تسير ملكاً لا يبصر أحداً من أولئك الذين تعرفهم فارعبوك وأقلقوك. وتتساءل: "هل أنا من جماعة أبي نضال؟ "وتخيفهم بالقدر الذي جربوا فيه، في جسدك، من أدوية. تزعجهم كما أزعجوك، وتخاطب أبا نضال: "لو تعرف يا أبا نضال مقدار الرعب الذي تبعثه في قلوب الناس هؤلاء حين يذكر اسمك. لو تعرف ما يلم بهم؟" اية طائرة ستخطف؟ اي مسؤول سيغتال؟ وتتساءل يومها: "هل يمكن لفلسطيني بسيط جداً ووديع كحمل أن يرهب مدينة؟ أن يعيد الجرذان البشرية الى جحورها؟ ". "لا. لست من جماعة أبي نضال ايها السادة. ولكني مدين له، بما قدمه الي من خدمة كبرى".

"ان هجوتك أيها الرئيس بقصة ساخرة فسوف أصبح مثل المتنبي: يمدح اذا اعطي ويقدح اذا منع. لا. لن أفعل هذا ولن أكتب قصة تكون محورها. صحيح أنك تصلح لأن تكون شخصية قصصية كاريكاتيرية عنوانها المناسب "بغل. بغل. ولكن

وتواصل، من جديد، عادتك. تجلس أمام التلفاز لتبصر المذيعين والمذيعات، وتهمس أحيانا: لا أدري لماذا يتحارب الفلسطينيون والاسرائيليون؟ وهل ثمة ضرورة لاستمرار الانتفاضة ما دام الطرفان يتوحدان أمام عدو مشترك جديد هو أنا. ولكن من أنا حتى أكون مركز اهتمام غير جهة؟ أنا لم أقل هذا. زميلي الذين زارني قال لي: " لقد أصبحت مشكلتك أكثر تعقيداً من مشكلة الشرق الأوسط".

"لا تتصور نفسك مهما. لو كنت تشكل أي خطر على الاسرائيليين لاعتقلوك. هل استدعاك هؤلاء بعد أن عدت ليسألوك عن حياتك، عما جرى معك، عن تنظيمك؟ " يقول لك ذات نهار أحد الذين يحاورونك.

" أيها السيد! ليس الاسرائيليون أغبياء. أنت تعرف أنهم لم يقضوا على الانتفاضة بقوتهم وحسب. ألا تتذكر أقوال رابين؟ لقد قرر أن ينهي الانتفاضة بالانتفاضة، وهكذا فعل! ألم تسمع عن الاتهامات التي يوجهها رفاق الديمقراطية لبعضهم. ألم تقرأ ما تنشره الصحف. ألم يزعم بعض الرفاق بأن المخابرات الاسرائيلية هي المسؤولة عن الانشقاق؟ ولماذا يطلبني الاسرائيليون ما دامت الفصائل الوطنية تقوم بهذه المهمة نيابة عنها وبالتنسيق معها؟ ألا يكفي ما فعلته بي الفصائل وحماس؟".

"لن تكتب رواية جيدة أكون محورها ما لم يلجأ كاتبها الى اتباع اسلوب وجهات النظر. وأنا شخصياً لا أستطيع كتابتها، فالحوار الاشاري مربك. أحياناً لا أستطيع فهم الشيفرة جيداً. يلمحون الى شيء وأفهم غيره، ولهذا أثرت ألا أكترث، اطلاقاً، للغة الاشارة. من يريد أن يتحدث معي فليضع النقاط على الحروف. ليقل ما يريد مباشرة. ولكنني أتساءل عمن يستطيع كتابة رواية مثل هذه. لا بد وان يقوم كل فصيل فلسطيني بسرد تصوراته عني ليصوغها كاتب موهوب، وتستطيع ان تفعل الشيء ذاته الجهات الاخرى: الاسرائيلية والألمانية. ولا بأس من ان تشارك الاردن في هذا. أما وجهة نظري فسأكتبها شخصياً، ولتكن جزءاً من رواية نتفق فيما بعد، ان اتفقنا، على اختيار عنوان مناسب لها. ولا بد من ان تترجم الى الالمانية والعبرية حتى يطلع عليها القراء اليهود والألمان. وينبغي أن تنشر أيضاً بالعربية وان توزع في الضفة الغربية وقطاع غزة ومناطق الاحتلال الأول.

" من الآن فصاعداً سوف أعتزل الآخرين. سوف أجلس وحيداً. أصنع قهوتي التي آمل ألا يكونوا، في غيابي عن المنـزل، قد خلطوها بمادة ما. وأشربها على مهل. سوف أجلس في المنـزل كثيراً أو قليلاً. أغلق الباب والنوافذ وأسدل الستائر، وأغرق في عالمي الخاص. وسأحاور الصغير. أحادثه وأشاهد حركاته. وما دام أصبح محور اهتمام العالم فلا شك أنه يستحق ان يحادث. ولعل البرتو مورافيا صاحب " أنا وهو " أدرك هذا. حقاً انني لم أقرأ الرواية، غير ان ما قرأته عنها كان طريفاً. يشغل الصغير العالم كله. يصبح محوراً للغة اشارية. يستعير الناس عنوان نص قصصي هو " ليل الضفة الطويل " ليقصدوه. يصغر الصغير حين ينام، ويكبر حين يصحو. يقلقني الصغير. يزعجني عندما يصحو، وأحياناً يزعجني حين ينام نومة غريبة. افتقده وافتقد حركته. لقد اختلف الآخرون حوله خلافهم حول صاحبه. قال قسم منهم انه صغير صغير، وقال آخرون انه صغير كبير. وكان الصغير يعلمني النظرية النسبية جيداً. تحدد الاجسام حجمه. وها انا الذي لم يعجب بالعلوم ذات نهار يفهم نظرية مهمة. وتبدو العلاقة بيني و بينه علاقة طردية لا عكسية. اكون مرتاحاً فيكون كذلك، واكون قلقا فيقلقني نومه. هذا الصغير يصلح لان يكون موضوع قصة قصيرة، موضوع رواية. يشغل العالم. يشغل النساء كلهن، ويشغل الرجال اكثر. يهتمون بامره ليل نهار. يستخدمون لاجل ان يظل حياً العقاقير والأدوية، وقد يقتلونه ايضاً بالعقاقير والادوية. هذا الصغير كبير كبير، انه اكبر من الاشياء كلها. اكبر من الوطن واكبر من الأمة واكبر من العالم كله: انه محور العالم. يشغل ذهن الآخرين ويقلقهم، ويبدو مزعجاً جداً حين يقتصر على وظيفة واحدة".

ويكرر الآخرون زياراتهم. يأتون إليك ليمثلوا أدوارهم، ثم ينصرفون، بعد ذلك، ليقولوا انطباعاتهم التي يصدقها الآخرون، هؤلاء الذين أصبحوا كابوساً آخر. "العزلة والعزلة فقط". وتتساءل ان كانت العزلة ستعود عليك بالراحة. كنت، وأنت هناك، تنفق الوقت وأنت وحيد في غرفتك. تقرأ. تستضيف فتاة. تثرثران معاً وتشربان القهوة معاً. وكنت تبتعد عن العرب. تنشد الهدوء بعيداً عنهم، ولكنهم لم يتركوك وشأنك. وتصغي، هنا، الى كلام مشابه للكلام الذي كنت تصغي اليه هناك. "ماذا يفعل في المنـزل وحيداً؟ ألا يشعر بالملل؟ ألا يرغب في محادثة الآخرين؟ هل يقرأ كثيراً؟ وماذا ستنفعه القراءة والكتابة؟ ألا يحتاج الى إمرأة تحدثه، تحضر له الطعام، تنظف له المنـزل، تعد له الطعام والقهوة، امرأة يخرج معها مساءً".

ويتصل بك، ذات مساء، صديقك المحرر الأدبي. يسألك عن امكانية تسجيل قريبة له في الجامعة، ثم يحدثك قاصدا: "أمّا أنا فأوثر الروح على الجسد الفاني. أمكث في المنـزل ساعات طويلات. أعتزل الآخرين ولا أخالطهم. يا أخي ما أفضل الخلوة!" وتخاطب نفسك بعد أن تصغي اليه: "هذا الصديق لا يختلف عن الآخرين! هل يريد أن يعرف ان كنت شخصياً تفعل هذا؟" وتتساءل بعد أن تضع سماعة الهاتف: "ومن سيتصل أيضاً هذا المساء؟ ومن هي الجهة التي ستطلب منه أن يفعل هذا؟ هل سيكون الاتصال من أمريكا أو من القدس أو من ...؟" وتتابع: "أبناء الكلب، ألا يكتفي هؤلاء التافهون بارسال الأشخاص، في الوقت المناسب وغير المناسب؟ ألا يكتفون بهذا؟ ألا يكتفون بما يقوم به ما كل شارب الذي يرسل الطلبة، ويطل علي، من شاشة التلفاز الاسرائيلي، متلبساً شخصية مراسل البرلمان، ايلي نيسان؟".

وتخاطب نفسك بعد أن تلتقي بمسؤول ألماني جاء في زيارة للمؤسسة. "لابدّ وأن المشكلة ستجد، هذا النهار، حلاً وتستفسر منه ومن شجرة الحديقة ان كان حضورك معهما، في أثناء مقابلة الرئيس، ضرورياً. ويذهبان وحدهما. ينفقان ساعة معه ويعودان. "المشكلة تكمن في الرئيس. لقد أنفقنا، معه، ساعة كاملة نقنعه بالأمر الذي لا يحتاج الى كثير نقاش. ويخيل الينا أنه غبي لدرجة لا تتصور".

ما زلت تذكر لقاءك الأخير معه: "اذا لم تحضر الشهادة فسوف نعاملك معاملة المحاضر"، وتوافق على هذا ولكنه، يتراجع عن قراره ليطلب منك تصديق الشهادة أولاً، ويعلمك أنه يستطيع أن يقوم بهذه المهمة. وتنتظر اياماً لتعرف أن السفارة الألمانية في عمّان، اعتذرت عن تصديق الشهادة. وتسأل صديقك ان كان الرئيس، حين عامله محاضراً، طلب منه أن يصدق شهاداته: "لقد وافق على تعييني محاضراً دون شروط".

"هذا ليس رئيس مؤسسة. هذا بغل "يقول لك صديق أصغى الى الحوار، وتذهب، الى الرئيس، من جديد. تخاطبه: "أيها السيد الرئيس، ان ما طلبته مني ليس سوى تعجيز، فأنت لم تطلب الشيء نفسه من أحد المدرسين!".

يرتبك الرئيس. يختلف لون وجهه. يتصبب عرقاً ويسألك عمّن أخبرك بهذا ويصمت. يكتب نصاً، يعاملك بناءً على ما ورد فيه، محاضراً. " أيها الرئيس انك لست سوى طرطور، ولو كنت مكانك لاستقلت". تقول له بعد أن يتراجع عن قراره بتعيينك أستاذاً مساعداً، وتوجه اليه الخطاب "وسوف ترى ماذا سأفعل".

يأتيك، مساءً، وفد النقابة. يحادثونك ويطلبون منك أن تتعاون معهم في حل المشكلة وتقول لهم: "نعم لقد قلت له انه ليس سوى طرطور، وسوف أقولها، أمامكم ان أحببتم أن تسمعوها أمامه".

يقص الرئيس ما حدث. يقول أشياء ويخفي أخرى. وتمعن النظر فيه. تتأمله. تنظر الى شعره الأشيب، وتتابع رنة صوته الكسير. تخاطب نفسك، وهو يخفي يده في جارور الطاولة: "لعله يريد أن يسجل ما يجري على شريط حتى يدينني به عند الضرورة". تتذكر ما يجري معك. يفعل معظمهم الشيء نفسه. هناك في ألمانيا وهنا أيضا. واذا لم يكن ثمة إمكانية لمسجل يحضر الشخص شخصاً آخر ليصغي الى ما تقول. ولا تكترث كثيراً للعبة عمرو بن العاص ودهائه، وتهمس: "وان لم يكن أبداً داهية، وسوف يتراجع عن كلامه، أما أنا فسأثبت كلامي". يتراجع عمّا كان قاله. يبدو طفلاً وديعاً. يغير في الكلام. يحاور ويناور. يتكلم بهدوء لافت للنظر. وتقول له، عندما انتهى من كلامه: "أما أنا فسأقصّ الحكاية كاملة. نعم لقد قلت لك أيها الرئيس انك طرطور، وعليك أن تعرف لماذا قلتها؟".

"لا. لا. أيها الفلسطينيون، لن تنجزوا شيئاً الاّ اذا كنتم أقوياء!" تنظر الى المذيعة جلوريا، وهي ترتدي اللون الأسود، وتبصر صورة رابين وراءها: "أعرف أنك يا ألف نون سوداء وأن السيد رابين يقف وراءك ايضاً. انا متأكد من هذا، ولكني لن أقدم على ارتكاب أية فعلة حمقاء".

يوميء الأستاذ وحش، في القدس، في مؤتمر الحروب الصليبية، الى أستاذ عربي حتى يظل قريباً منك. يظن الأستاذ وحش أنك قد تعتدي على السيدة ألف نون. تدرك هذا في سرّك، وتخاطب الأستاذ وحش، وهو جالس على المنصة فيما غيره يقرأ ورقته: "لا. لا أيها الأستاذ. لستُ نازياً أو اسرائيلياً أو بدوياً أردنياً، ولستُ أيضاً كتائبياً أو حتى فلـ ..." ولا تكمل عبارتك الأخيرة.

تخاطبك احدى قريباتك ذات نهار قائلة:" ولكن من غير المعقول أن يذهب جهد أربع سنوات سُدى!"، وتعرف أنّ أخاها الذي ما زال يقيم، هناك، في ألمانيا، قد أبلغها أن الجامعة لن ترسل لك الشهادة.

" دال نقطة. دال دكتور. دال داعر. دال ديوث. دال دينار. دال دون جوان. دال دم. دال ديك. ..." وتثرثر وأنت عائد من منـزل قريبتك مع لا أحد. "انهم يساومونني منذ زمن بعيد. يقولون لي: ارض بما نقول وانسَ ما تقول وخذ شهادتك ولا تجعلنا نبصر وجهك. اعتبر ما حدث غيرة من زملائك العرب وحَسَدا. اقبل أن تكون لوطياً ودون جوان وداعراً وقواداً وحشاشاً واميا، ولا تقل انك كُنتَ ملاحقاً من زوج السيدة ألف نون التي كانت، بدورها، على علم بأمره. هذا الأمر حساس جداً

"اذا خافوا منك أعطوك ما تريد".

"لا ايها الصديق. لست بحاجة الى مالاً أستحقه، والذي يلجأ الى القوة هو من يشعر أنه لا يستحق الشيء عن جدارة. لن أصبح اسرائيلياً يذبح غيره حتى يحصل على وطن. حقاً أنني قد لا أنجز ما أريد، ولكن ... لن اصبح تابعاً لتنظيم ما حتى أنجز أشياء شخصية أستطيع انجازها بالمنطق. أنا شخصياً غير قادر على استيعاب ما يجري. لقد وجد التنظيم لخدمة الوطن لا لخدمة الفرد، ومن يقرر الانضمام الى تنظيم فعليه أن يعطيه لا أن يأخذ منه".

يقول لك، ذات نهار، مسؤول كبير في تنظيم له حضوره: "حين ينضم المرء الى تنظيم ما، فعليه أن يتفانى في خدمته. تتلاشى الذات في التنظيم ويصبح هذا الأم وألأب والعائلة والوطن وكل شيء، في حياة الفرد. وعلى الفرد أن يفكر في مصلحة التنظيم وهو في مكان عمله، وهو في الشارع أو في البيت"ويضيف:" حتى وهو يضاجع زوجته". ولم تعد، في الأيام الأخيرة، ترى أفراد تنظيم على هذه الشاكلة. وترى من يلتحق بالتنظيم لتحقيق مآرب شخصية: "ادخل هذا التنظيم أو ذاك حتى تحمي نفسك" هذا هو شعار المرحلة، شعار الفترة الأخيرة من الانتفاضة.

ويجيئك، وأنت جالس في مكتبك في الجامعة، مسؤول التيار الاسلامي من الطلبة. يحدثك عن أخيك السجين. يطلب منك أن تقص ما حدث معك يوم كنت عائداً من رام الله وحاول أحد افراد حركة فتح الاعتداء عليك. وتخاطب أخاك الذي يقبع، الآن، في السجن: "من طلب منك أن ترسل لي أفراداً من حماس حتى يدافعوا عني؟".

وتخاطب مسؤول التنظيم: "أيها الأخ! أنا لم أطلب حماية من أية جهة. أنا أكتب وأثرثر وأبدي رأيي فيما يجري. لقد حاولوا الاساءة اليّ، وأرادوا تبليغي رسالة: كفّ عن الكتابة والاّ! واذا أرادوا أن يقتلوا فليقتلوا، ولن ألجأ، شخصياً، الى استخدام السلاح دفاعاً عن نفسي، كما أنني لا أطلب حماية، ولهذا أتحرك بلا خوف. انني لا أرغب في أن أكون انتهازياً، وسأكون عبد الله القتيل لا عبد الله القاتل، لأنني ضد أن

وتلحظ الحركات التي يبديها الطالب. يكتب اسمك تارة بلا لقب وطوراً يضع اللقب أمامه موحياً لك أن كُن معنا وستُسوَّى أمورك. تفهم ما يرمي اليه جيداً، وتواصل كلامك: "وحتى هنا، في الجامعة، فسوف أسوي أموري بالنضال النقابي، ولا يمكن اللجوء الى الزعرنة".

" اللعنة عليك أيها الرئيس. هل ثمة اتفاق بينك وبين شركة بيزك الاسرائيلية؟ هل يرضيك أن أدفع هذا المبلغ الكبير من النقود شهرياً؟ هل ثمة فائدة تحصل عليها من الشركة؟" تُراودك هذه الأسئلة كلما مددت يدك الى الهاتف لتكلم الأستاذين وحش وفولا مستفسراً عمّا ألمّ بطباعة رسالة الدكتوراة التي أنجزتها.

تغرق في عزلتك. تتأمل جدران الشقة التي أصبحت باهتة. تنظر في الأثاث الذي لا تلتفت الى تنظيفه الاّ بين فترة وأخرى. تمارس بعض الحركات الرياضية. تنظف الأرضية. تكنس السجاد بالمكنسة الكهربائية. تكتب بعض خواطر سرعان ما تمزقها. تصنع القهوة وتتركها، أحياناً، دون أن تشربها . تغير ديكور الشقة. تنقل التلفاز من غرفة الى أخرى. تجهد نفسك في نقل المكتبة من مكان الى آخر. تصغي الى صوت مارسيل وصوت فيروز. تقرأ مظفر النواب ومحمود درويش وأمل دنقل وعبد الرحمن منيف والطاهر وطار وغابرييل غارسيا ماركيز وجنكيز ايتماتوف. تقرأ، وأنت مستلق على السرير، تقرأ وأنت جالس على الكنبة. تتابع برامج التلفاز. ثمة وقت طويل. طويل جداً. تنفق أربع ساعات في الجامعة، ويبقى أمامك النهار كله. تنام ست ساعات. تطبخ. تنظف وتشاهد التلفاز أيضا.

ولا تلتفت الى مشكلتك الخاصة كثيراً. تحاول أن تنساها من أساسها. "إن أحضروا الشهادة فانما يكونون أعطوني حقي، وان ظنوا أني سأتنازل عنها، وسأتراجع عمّا قلت، فهم واهمون. سوف أكون شهيد الكلمة. أنا حلاّج هذا العصر. سوف أترك لكم بصمة مضيئة أخرى في تاريخكم. لا. ليس تراثكم كله مقتتصراً على المتنبي والنابغة. لا. ليس شعرنا كله شعر مديح".

وترى، من على شاشة التلفاز الاسرائيلي، السلاح بأيدي الفلسطينيين وكأنهم الدروز الذين يخدمون في جيش الدفاع الاسرائيلي. يحاور يوني بن مناحيم، مراسل التلفاز، هؤلاء ويحادثهم ويصورهمم كما لو أن الطرفين ليسوا أعداء. ويصبح السلاح سلعة تباع في الأسواق ولا يتردد حاملوه في ابرازه واظهاره. وتهمس: "من المؤكد أن الاسرائيليين يعرفون جيداً أن السلاح هذا لا يستخدم ضدهم، وانما ضد الفلسطينيين الآخرين "وتواصل الهمس:" يجوعُ أهل الضفة وغزة، ويمنعون

تغرق في وحدتك. تمكث في شقتك ساعات وساعات. تتصفح جريدة ما. تحاول أن تكتب رسالة لطفلتيك. تنظر الى صورهما. تستمع من جديد الى أغاني فيروز ومارسيل. تحن الى هناك. تحن الى المشي على حافة النهر. تحن الى الجلوس على مقعد من مقاعد ساحات المدن العامة، الى الجلوس على مقهى رصيف. تحن الى مراقبة الغادين والرائحين، الى امعان النظر في حمام المدينة، الى ثلج كانون واحتفالات أعياد الميلاد، الى ضجر الاجازة وهدوء المبنى، الى حراسته دون تكليف من أحد. تحن الى بائعة الخضروات والفواكه اللطيفة، الى المرأة العجوز التي تخرج، من حقيبة يدها، مرآتها واصبع الروج لتطلي شفاهها، الى موسيقى أمريكا اللاتينية. تحن الى تلك المرأة التي خلفت من الايطالي طفلة وأخذت تربيها بعد أن تركها الايطالي، تلك المرأة التي أخذت تعيش مع الموسيقى النحيل ايام نهاية الأسبوع؛ تحن الى حوارك معها في غرفة الغسيل، الى صفاء وجهها، الى استدانتها منك مبلغاً من المال، والى محاولتها نسيان اعادته، وتحن الى تسامحك معها واستعدادك لأن تدفع عنها، من جديد، ثمن وجبة غذاء أخرى.

وتواصل عادتك. تشاهد، مساءً، التلفاز وتتساءل: " ألا أستطيع، حقاً، التخلص من هذه العادة القبيحة؟ " وتتأمل مشكلتك: " صحيح أنني لم أعتقل من الاسرائيليين، ولكنهم نجحوا، بالتنسيق مع الفصائل الوطنية، في سجني منزليا. لقد فرضوا علي الاقامة الجبرية دونما ابلاغ مباشر خطياً أو شفوياً. وها أنا أسير عادة لا أستطيع منها فكاكا "

" اذا كان هناك مذيعان فأنت هومو، واذا ارتدت جلوريا اللباس الاسود فإن ألف نون سوداء، واذا ارتدت اللباس الأبيض فهي بيضاء. ويمكن قول الشيء نفسه عن تانيا بار أون التي ترمز الى مطلقتك، وجوانا شرفيط التي ترمز الى الصبية. ويصبح فايز عمر معادلاً لزميل لك في الجامعة، ويوني بن مناحيم معادلاً لكارل، وفرنسيس شوفاني معادلاً لكاسب، وميخائيل دكوار معادلاً لصديق يساري يدرس في الجامعة، ومنشه بحر معادلاً لفوزي المصري، ومنى الزيات معادلاً لقريبتك أم الصبية، وآخرون معادلين لآخرين، وسرعان ما تفك الشيفرة التي يوصلونها اليك."

وتتساءل وأنت تبصر جلوريا ستيوارت: " أما انتهت علاقتي بألف نون منذ زمن؟" كما تقول وأنت تشاهد تانيا بار أون: " أما ذهبنا أيتها الزوجة كل في طريق؟ فلماذا يصرون على أن يعيدوا عقارب الساعة الى الوراء؟."

تمعن النظر في اللوحات التي تعرض، على شاشة التلفاز، بعد انتهاء نشرة الأخبار. تحفظها غيباً وتعرف دلالات قسم منها جيداً. تربط بين ما قيل عنك؛ في اليوم الذي تعرض فيه اللوحة، واللوحة وألوانها وما فيها من رسوم بارزة. وتعرف ما معنى ألا تعرض أية لوحة.

" لا. ليس ثمة تنسيق بيني وبين الأدارة المدنية الاسرائيلية في المدينة. أنتم الذين تنسقون. أنا لا أقبل تكرار عنوان كتاب محمد الماغوط " سأخون وطني." أنتم الذين تخونون. " وتخاطب رفيق الجبنة الدنمركية الذي أحضر الكتاب ووضعه أمامك، وأنتما ترتشفان الشاي معاً، في المقهى: " لا يا أيها الرفيق! أنا لا أخون الوطن. الرفاق يخونون." ويذكرك الرفيق، وهو يحاورك اشارياً، برفيق الجامعة.

تتحاوران معا. تتحاوران في الممر، وتتحاوران في مكتبك أو في مكتبه، وتتحاوران في الكافيتيريا أيضاً. تختلف لهجة الرفيق بين فينة وأخرى. يخاطبك تارةً باسمك وطوراً يمنحك اللقب، وثالثة يقول لك يا أخ، ورابعة يناديك بالرفيق. ويضع الرفيق، حين تقول كلاماً لا يعجبه، يده في جيبه ويعبث بالنقود مومئاً لك بأنك تفكر في هذا لا في الوطن.

وتخاطب الرفيق، بعد ان ترتشف رشفة من كأس الشاي، وتنظر في علبة السجائر الأجنبية

المستوردة من نوع (Gold Leaf) " لا. لست ملك النقود أو الذهب أو المادة. قد تكون انت. وقد يكون الرفاق. أتذكر أبا وردة. كان لكم رفيقاً، وها هو اليوم يتعامل بالدولارات، دولارات التنظيم. أنا حقاً موظف في الجامعة، وآخذ منها نقودي، وأما انتم فموظفو فصائل. ليس الرفاق وحدهم على هذه الشاكلة. كل فصيل وله جيشه الخاص، له موظفوه."

وتضحك، وأنت تشاهد الآخرين يوحون لك بهذا. " لقد طلبت ألف نون مني، وأنا هناك، رقم حسابي في البنك لتدفع لي ثمن المجلات. كنت أعرف هدفها من وراء ذلك: أصمت وأعتبر ما حدث معك ما حدث. قل انهم الطلبة العرب الذين سببوا لك المشاكل. وظللت أتكلم حالي حال حلاق الاسكندر، حلاقه الأخير. وعانيت وما زلت أعاني."

" لا تكتب ضد أحد، هنا من الجامعة. يمكن ان تتزوج من الفتاة التي تريد. كن مثل أبي عرب. التزم الصمت وقل إن مشاكلك مشاكل مالية". وتضحك في سرك. تنظر، وانت في الممر تنتظر دورك لاستلام راتبك، الى المدير يعطي أبا عرب النقود، وفي الغرفة المقابلة كانت ثمة فتاة أحضرت خصيصاً. " هذه الفتاة توافق على الارتباط بك، اذا وافقت ان تصبح مثل أبي عرب." تفهم الشيفرة جيداً. تحلها.

ويشارك التلفاز الاسرائيلي في اللعبة نفسها. يوحي لك، أحياناً، ان هناك زيادة في الأجور، وتارةً يتكلم المذيع عن انخفاض في الأسعار وحسم في الرواتب. " هل حقاً نقودي سوداء؟ اما انا فأرى أنها بيضاء خالية من أي سوء. انها من عرق جبيني. لقد دفعت، من أجل الحصول عليها، أجمل أيام حياتي. أنفقت الليالي وأنا أقرأ وأكتب. بذلت مجهوداً مضاعفاً منذ كنت طالباً في المدرسة، ولم يختلف الأمر في الجامعة أو بعد التخرج منها. منذ خمسة عشر عاماً ويزيد وأنا أكتب وأقرأ وأشارك في الحياة الثقافية. هذه النقود ثمرة عمر طويل، ثمن ساعات وأيام وأعوام كابدت فيها ما كابدت. وحين أقول انها نقود حمراء فلا يعني هذا ان فصيلاً يسارياً يسهم في دفعها. لا. أنا لا أقبل من أي طرف أي قرش. أنا آخذ حقوقي كاملة غير منقوصة."

" أنت مثقف أخضر" يقول لك التلفاز الاسرائيلي، بعد انتهاء برنامج الاسبوع في ساعة. يعرض لك لوحة تتشكل من أشجار خضراء وماء جار. وتظهر الصبية الجميلة مبتسِمة. " هذه الصبية تشبه تلك التتي تحاورني اشارياً. تشبهها الى حد ما."

وتكرر لازمتك: " ليس هناك من جدوى، والصمت أجدى"، وتضيف" والعزلة. العزلة، يا سيد، العزلة." وتنجح في انجاز العزلة، وتخفق في تحقيق الصمت: " اعرف انني ثرثار. لقد ورثت هذه الصفة عن أبي الذي اكتسبها من الحاكم العربي."

منذ فترة وانت تفكر في كتابة رواية عن الحاكم العربي. " صحيح أنني لا أكتب الا عن تجربة أحياها، الا أن الحاكم هذا جزء من حياتي. أشاهد، كل مساء، طلعته البهية. أصغي الى صوته أتمعن فيما يقول، وأتابع ردود أفعال المستمعين. ألاحظ مدى تعلق الناس به، كما يوحي بذلك التلفاز. هذا الحاكم جزء من كياني. انه الاه. الاه يظهر خمس مرات يومياً أو يزيد. نصلي له، كل نهار، صلاة الحاضر، ونصلي له صلاة الغائب، وأشك في ان كل مواطن يضع في مكان عمله مصحفاً او انجيلاً كما يضع صورة الحاكم. الحاكم حاضر حاضر. اشاهده اكثر مما اشاهد اهلي، وأعرف عن تحركاته ورحلاته أكثر مما أعرف عن تحركاتي، ولا رحلات لي. وهو الأب الحاني، والقائد الباني. هو الأول الأول. المعلم الأول والرياضي الأول والطبيب الأول والمؤسس الأول والجندي الأول وهو... الفحل الأول."

وتريحك العزلة من الاصغاء الى تفاهات الآخرين. الى فضولهم وحرصهم المبالغ فيه. تريحك من الاستماع الى اسطوانة المدينة ومحيطها: " ما الذي ألم بك؟ ألا

CRAVEN الى انك جبان، والدخان من نوع امبريال الى انك امبريالي، والدخان من نوع VICEROY الى نائب الرئيس، ومن نوع L&M الى اللؤم، وقد يرمز الى اجادتك اللغة الأجنبية وعدمها."

" حقاً لماذا أحترم الآخرين؟! انا أفهم جيداً لماذا يحتقر الفلسطينيون العرب واليهود والانجليز والامريكان وآخرين. ولكن الآخرين الذين أكتب عنهم نحن: أهلي وأصدقائي وزملائي. يا الهي كيف يمكن ان يصل المرء الى وضع مثل هذا؟!"

" يطلق المقاتل الفلسطيني، في أحداث طرابلس عام 1983، قذيفة المدفع على المنشقين، فترتد القذيفة وتصيبه في عينه، ويرتفع صوته كافراً بكل شيء. ويطلق الفلسطينيون المنشقون النار على مخيم البداوي. ولم يكن الأمر في أيلول 1970، في الأردن، مختلفاً. يطلق جنود الملك، وهم في معظمهم فلسطينيون، النار على اخوانهم الفدائيين، والذين يرفضون هذا يحاكمون أو يهربون للالتحاق بالثورة " وتضيف: " ونأمل ألا يحدث هذا، هنا، في الضفة أو غزة " وأنت تعرف أنهم يستبيحونك يومياً.

تجلس، كل صباح، على كرسيك، أمام طاولتك، تكتب بعض ملاحظات، كما لو أنك تحاول محادثة شخص ما، لتتغلب على الوحدة التي أخرتها. تشعر مقطعاً شعرياً رديئاً تتغزل فيه في هذه أو تلك. وقد تهجو رئيس الجامعة وبعض المدرسين فيها، وتغادر الى الجامعة تاركاً ما كتبت حتى يقرأه العسس الذين يأتون، في أثناء غيابك عن شقتك، ليبحثوا عن أسرارك. يفعلون ما كان الألمان، هناك، يفعلونه. وقد يصغون الى المذياع قليلاً ليعرفوا الأذاعة التي تصغي اليها حتى يحسبوك على أصحابها. ويطلبون من بعض معارفك ان يعيدوا على مسمعك ما كتبت، وأن يوحوا لك بأنهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة في منـزلك. انهم يعرفون أدق خصوصياتك. وتخاطب هؤلاء: أعرف أيها القردة. أعرف أنكم تعرفون عني كل شيء " وتواصل: " وأنا لا أخاف على أي شيء. تحولوا جميعاً الى مخبرين، ويمكن، اذا

ويأتيك الشاعر ليلمح لك عن أشياء تخصك. يخاطبك قائلاً: " انني ، أحياناً، أحدث نفسي، وبخاصة حين أعجز عن محادثة الآخرين. ألجأ، عندها، الى طاولة، وأدون مشاعري وما أفكر فيه على الورق." وتهمس: " أعرف أيها الشاعر أنك تعرف ما أفعله شخصياً " وتقول له: " انني أفعل هذا، ولكن بقصد" ولا تكمل الحديث.

" لماذا أحترم الآخرين؟ وما الذي يعنيهم من أمري ؟ انني أرغب في ان أنام متى أشاء وأن أصحو متى أشاء، وسوف أسهر مساء الأربعاء ومساء الجمعة لمشاهدة ما يعرضه التلفاز الأسرائيلي من أفلام. أيها القردة انكم لا تفكرون سوى في مشهد الجنس من الفيلم، أمّا ان يكون مأخوذاً عن رواية مشهورة أو ان يرمي الى فكرة نبيلة، فهذا ما لا يعنيكم أمره، وألا فلتفسروا لي كيف تكاثرت الصحون التلفازية في نابلس ولماذا: " وتدرك أنهم سوف يرسلون لك، صباح الخميس واحداً من أقاربك ليعرف ان كنت نهضت من نومك أم لا؟ وليتأكدوا، من ثم، من مشاهدتك الفيلم. " سوف ألاعبكم أيها الخنازير. سوف أشاهد الفيلم ان أستطعت، وان لم أستطع فسوف أترك التلفاز مشعلاً ليشاهده الفراغ. ولكم ان تقولوا أن كنت مناضلاً أو منفلشاً أو خائناً. وأنتم أكثر من يدرك أنني قد اصبح مناضلاً اذا اردت، وان اصبح شهيداً مثل ابي جهاد. الامر بسيط ان اوافق على ما تقولون، وان ارى ما ترون."

ولا يكتفون بتأويل أقوالك وتتبع تحركاتك وحركاتك. يأتي زميل ليزورك في مكتبك. يجلس على مقعد قريب من كرسيك، ويبدأ بمحادثتك دون ان تكون لديك رغبة في الكلام معه فأنت تعرف ان رأسه فارغ الا من تفاهات وبعض علوم اتقنها ليس اكثر. يسألك عن الملابس التي ترتدي ويبدي رأيه في البضاعة الاسرائيلية، ويعبر عن إعجابه بما تنتجه شركة باجير. وتعرف قصده من وراء ذلك، وتتابع نظراته الفاحصة الى المعطف الذي ترتدي. تنظر إليه وتتفحصه من جديد، ثم تقول: "نعم هذا المعطف بضاعة اسرائيلية، ولقد أزلت الاشارة التي تلصقها الشركة على الكم لأنني لا استسيغ منظرها، عدا أنه ليس من الضروري أن نفتخر بذلك. إننا مضطرون لشراء البضاعة الاسرائيلية، ولا اعتقد ان احدا يستطيع ان يزايد على الاخرين بهذا الخصوص."وتواصل كلامك: "والبضاعة الاسرائيلية موجودة، في نابلس وفي الضفة الغربية، ولا ادري ان كان ثمة بديل. الايدي التي تخيط هذا المعطف ايد عربية، والذين يبيعونه في نابلس عرب، وأنا لا أستطيع السفر الى الأردن لأشتري بضاعة أردنية."

وكنت تعرف انهم يتفحصون، في اثناء غيابك عن منـزلك، ملابسك ويتعرفون على مصادرها، كما كانو ايضاً يتفحصون ملابسك الداخلية لملاحظة ما عليها من علامات. وكنت تعرف ايضاً ان الذي يكوي بنطالاتك يلاحظ العلامة الاسرائيلية عليها.

" لا تكترث إليهم اطلاقاً. أنت تعرف أنهم كانوا، قبل الانتفاضة، يذهبون الى الداخل، وينفقون لياليهم على شاطىء نتانيا وتل ابيب، وتعرف ايضاًكم كانوا يدفعون مقابل الوجبات التي يأكلونها هناك. وانت تعرف ايضاً انهم، في فترة الانتفاضة الاخيرة، اخذوا يذهبون الى جاليا، بالقرب من من اريحا، وكانوا يدفعون مبالغ لتذكرة الدخول، وتعرف ما هو اكثر من ذلك؛ تعرف ان عناصرهم التي كانت تبيع التذاكر."

وتخاطب زميلك: " ولكنني، على اية حال، لا أقول أنّ بضاعتهم هي افضل بضاعة في العالم، فثمة ما هو افضل منها بكثير." وتواصل: " ألم تقرأ ما كتبه اميل حبيبي في روايته "المتشائل" عن البضاعة الاسرائيلية واصفاً احتفاء كبار القوم في الأردن بها وتفضيلها على غيرها وتقص عليه ما حدث معك عام 1973: "وأنا، ذات نهار، متجه الى الأردن، أخذت معي هدية الى أحد أقاربي، هناك، وقد فتشني الجنود الأردنيون جيداً، ولمّا أبصروا شرشف الطاولة صادروه بحجة أنه بضاعة اسرائيلية، ومن المؤكد أنهم زينوا به، فيما بعد، طاولات بيوتهم" وتقص عليه ما قصته المرأة، وأنت في السيارة، عما حدث معها ذات نهار: كانت المرأة مغادرة الى الأردن وقد أخذت معها لابنها الجندي وجبة طعام من السمك، وهو ما كان يفعله كثيرون من المسافرين الذين يأخذون معهم الطعام لأفراد عائلاتهم في الأردن، ورآها الجنود فصادروا السمك لأنه سمك اسرائيلي، ثم، بعد أن غادرت المرأة، أخذوا يلتهمونه. وقصّ أحدهم، فيما بعد، القصة على ابنها، دون أن يعرف ذلك، فقال له: انها أمي، وأنّ السمك كان مرسلاً اليّ". وتخاطب زميلك، من جديد،: "ألم تقرأ ما ورد في نص "ليل الضفة الطويل" عن أبي وردة وبيعه للبضاعة الاسرائيلية.

تغرق في عزلتك. لا يربطك بهذا الوطن من رابط سوى شاشة التلفاز وما تسمعه من أخبار طائرة، من هنا ومن هناك، وما تشاهده في شوارع نابلس من صدامات مع جنود الاحتلال. تغادر صباح كل يوم جمعة المنـزل متجهاً صوب المدينة لمشاهدة فيلم الأسبوع: يلاحق شباب المدينة جنود الاحتلال ويطلق الآخيرون النار عليهم. وتستمر المعركة ما بين كروفر، وغالباً ما تنتهي بسقوط شهيد. "تقدم الضحية. يصلي الناس الجمعة. يقبل الله صلاتهم ويضاعف لهم حسناتهم بعشر أمثالها، وتحل روح الفراعنة في أهل المدينة. لابدّ من جثة تلقى في النيل. لابدّ من قربان بشري. وها هي ظاهرة تناسخ الأرواح تتحقق".

تسير أيامك الأخيرة، من بداية 1994، على وتيرة واحدة. تنام متأخراً. تصحو في السادسة صباحاً أو قبل ذلك بقليل. تصغي الى صوت مقريء القرآن والى نشرة

وتظل، في يوم الجمعة، مستلقياً في فراشك حتى ساعة متأخرة. وَتَحِنُّ، في شباط، الى هناك، الى التدفئة المركزية والى النساء. وتصحو، ذات صباح، وتصغي الى الأخبار. تتمنى لو أنك بقيت نائماً نومة أبدية. لم تصدق ما سمعت. همست: لعلها كوابيس الليلة المنصرمة. تتذكر طعام العشاء وتتراجع عن الربط بين الكابوس والطعام، وتهمس: "هناك كابوس واحد يضغط علينا نحن الفلسطينيين تنجم عنه كوابيس عديدة: كابوس الاحتلال، وكابوس المنفي وكابوس الفصائل" وتظل قابعاً في الفراش "اللعنة على شباط، اللعنة على هذا الشهر الخنثى ... لعلهم يبالغون في الأمر. لعل أحمد سعيد قد بعث من جديد هذا اذا مات حقيقة".

ما زلت تذكر الأيام الأولى من حرب حزيران. ما زلت تصغي الى صوت أحمد سعيد يذيع عن تساقط الطائرات الاسرائيلية تساقط الذباب، ولم تمض ايام قليلة حتى احتلّ الاسرائيليون الضفة والقطاع والجولان وسيناء. وتستمع الى صوت الاذاعة الاسرائيلية لتتأكد من الخبر، وتدرك أن لا مبالغة في الأمر، وتهمس: "اننا جيل الخيبةبامتياز. لقد فشل المشروع القومي أولاً، وفشل المشروع الاشتراكي ثانياً، وها هو المشروع الوطني يخفق اخفاقاً فاضحاً. وأنا أخفق أيضاً على مستوى شخصي".

تتقلب في فراشك. لا تأتيك شهية لتناول طعام الافطار. تصنع المزيد من القهوة، وتعود الى الفراش. تعبث في المذياع. وفجأة تصغي الى سماعات الجوامع تبث قراراً صادراً عن الحاكم العسكري: "بأمر من الحاكم العسكري لمدينة نابلس يفرض نظام منع التجول على المدينة ومخيماتها حتى اشعار آخر". وتمكث في شقتك الى أجل يحدده الحاكم العسكري، وتتساءل: "كيف ستبدأ نهارك في هذا الوطن؟ أنت لا تدري". وتدرك وغيرك أن الأمور، في هذا الوطن، منذ اندلاع الانتفاضة ليست على

وتمر أيام عديدة، والناس في منازلهم جلوس. وقد يجلسون، مساءً، أمام بيوتهم ليشاهدوا الملثمين، وهم يرتدون أقنعتهم ويحملون أسلحتهم ويسيرون. "لقد أسس الفلسطينيون دولتهم لأول مرة. انهم يصدرون الأوامر، ويلتزم الشعب بها، ولا يجرؤ أحد على تجاوزها". يقول الناس هنا.

وتهمس: "حقاً كيف يستطيع المرء، هنا، أن يحيا؟ كيف يبدأ نهاره ومتى يبدأه ومتى ينهيه؟ ثمة حدث يهز الدنيا. يقيمها ويقعدها ويقلبها على أعقابها" "أطلق طبيب اسرائيلي، صباح هذا اليوم، الموافق 1994/2/25، النار على المصلين في الحرم الابراهيمي الشريف، وقتل العشرات وأصاب المئات" وتخاطب صديقك القاص أكرم هنية: "لقد صدقت فيما كتبت. لا يجدر بأحد، في هذا الوطن، اعطاء مواعيد" "اللعنة، والمعذرة يا محمود درويش فليس هناك على هذه الأرض ما يستحق الحياة".

تظل حبيس المنـزل. تقضي ستة وثلاثين يوماً ملتزماً بقرار الحاكم العسكري. تتساءل ان كان ثمة من مخرج. وتخرج، أحياناً، كما يخرج الناس. تشترون بضائعكم وسرعان ما تعودون، فالمدينة التي سمح لأهلها بالخروج للتسوق تتحول، في هذه الأثناء، الى ساحة قتال، يتم على أثره فرض منع التجول من جديد.

وتلتقي، ذات نهار، في فترة فك منع التجول، في مكتب جريدة نابلس، بسيدة أمريكية تصغي الى حديثها وهي تحاور صاحب الجريدة، ولا تدري كيف شاركت في الحوار، وحين تصف ما أنتم عليه، وتظهر رفضك لمفاوضات السلام تسألك السيدة: "وما هي الاقتراحات التي تقدمها؟" وتضحك، ثم تقول بهدوء: "لا. ليس لدي اقتراحات، فأنا لست ياسر عرفات أو بيل كلينتون أو اسحق رابين. أنا أريد شيئاً واحدا : أن يخرج الناس من منازلهم وأن يعودوا اليها أحياء، لا أموات" وتضيف، حين يبدأ صوت الرصاص يلعلع في الأعالي: "وها أنت تسمعين".

" اللعنة علينا "تكرر كلما اجتمعت مع أولئك الذين يكررون على مسامعك، على الرغم من بشاعة المجزرة، أسئلتهم عن أوضاعك الشخصية: "ألم أقل لكم اننا نخوض في الأمور الشخصية أكثر مما نخوض في الأمور الوطنية، وأننا نقدم أرواحنا رخيصة لأجل الشرف الشخصي، في حين يجبن كثيرون اذا ما تعلق الأمر بالشرف القومي".

"لا. ليس غولدشتاين هو المجنون الوحيد. وكل من يريد أن يعيش في هذا الوطن فلا بد أنه شارب، ذات يوم، من ماء الجنون. ليست المدينة وحدها مدينة

تجلس أمام التلفاز. تتمدد على الكنبة. تمعن النظر في جسدك الذي بدأ يتكرش، وتتحدث مع نفسك مكرراً ايقاعاً معيناً: "اكلٌ. أكلٌ. نومٌ. نومٌ أكلٌ. تلفاز. قتلى. أخبار. ملك. طفل. حجر. قتلى. جرحى. أبطال". وتشاهد نشرة الأخبار، وتحزن كثيراً لأن التلفاز الاسرائيلي والفصائل الوطنية ما زالوا، على الرغم من المجزرة، يمارسون ساديتهم ازاءك. يتصل بك شخص ما. يسألك عن رأيك فيما يجري، ويصدر المحللون النفسانيون الكثر حكماً عليك، فيما تهمس: "حتى المجزرة هذه لم توقف مأساتك وتدخل الناس فيها".

" قلت بعد اشهر عديدة من عودتي، من ألمانيا: ما داموا يحاربونني وينسقون فيما بينهم، فلأنتقل من موقع المشاهد الى موقع اللاعب، ولألعب مع اللاعبين".

وتأخذ تنتظر ما يقولونه اشارياً لتحاورهم اشارياً، وتهمس: "وأكرر أيها السادة. أكرر ما قلته لكم، من قبل، بأن لا صلة لي بالادارة المدنية، كما تلمحون كلكم. وأعرف أنكم جبناء لا تجرأون على التلفظ بما توحون. وأعلمكم أنني سأحاوركم اشارياً تارة، وطوراً حواراً صريحاً ببيّناً. وسوف أزعجكم كما تزعجونني. ستقولون شيئاً وأقول نقيضه، وسوف أعطيكم أرقام هواتف معينة لتحللوا الأمر كما تريدون، وسوف أوقعكم في حيص بيص، وفوق هذا كله سأشرك الألمان والاسرائيليين والفلسطينيين في هذه اللعبة التي بدت مسلية".

وتخفق في اللجوء الى الصمت. يزورونك في منـزلك. يأتون، من جديد، بموعد وبدون موعد. يأتون ان كان الوقت مناسباً وان لم يكن موعد زيارات. وتكثر من محادثة نَفسِك: "تصور نفسك وقد تزوجتَ من فتاة يرشحها لك هذا الفصيل أو ذاك!" وتخاطب الرفيق: "لا أيها الرفيق. كل شيء ممكن الآ شيء واحد: أن يفكر الرجل في الفصيل وهو يضاجع زوجته. يمكن أن تفكر في مصلحة الفصيل، وأنت هناك، تماماً كما تفكر في مصلحته، وأنت هنا. يمكن أن تقدم للفصيل ما استطعتَ: أن تسافر يوم الجمعة الى القدس مخلفاً زوجتك وأطفالك وحدهم، مفضلاً مصلحة الفصيل على اصطحابهم في نزهة. أن تتبرع بنسبة من راتبك. أن تسهم في توزيع

" اللعنة عليك أيتها الضفة" تقرأ هذا في نص "ليل الضفة الطويل". وتكرر هذا وتقول: "لن أستطيع أن أكتب أكثر ما كتب صاحب النص هناك ". وتتابع: "ولن أستطيع أن أسرد أكثر مما سرد عن الأحوال والأشخاص وتقلباتهم في سنتي الانتفاضة الأخيرتين، ولو لم يكن النص صادقاً وواضحاً وصريحاً لما حاربوا مؤلفه حرباً لا هوادة فيها. تصور أن تهدد بالفصل من العمل لنص أدبي تكتبه. تصوّر أيضاً أن تخوّن لهذا. اللعنة عليك أيتها الضفة!".

ولا تلتفت الى تلميحات زملائك في الجامعة بفصلك من عملك. يجيئك، ذات صباح، زميل ويقول لك: "افرض أن المسؤول الكبير في الجامعة أراد ان يُنهي عقد عملك! فماذا ستفعل؟" وتلتزم الصمت، للحظات، ثم تقول: "حتى يحين الحين يكون هناك حديث" ويتكرر الموقف نفسه : يأتيك زميل آخر ويكرر على مسمعك كلاماً مشابهاً، وتجيبه: "لا بأس. فليكن، ولكن لا بدّ من أسباب منطقية. أسباب مقبولة كأن أكون مقصراً في عملي، أو كأن استغل المؤسسة لمصلحتي الشخصية أو الفصيلية، أو كأن أضاجع فتاة في حمامات الجامعة، أو كأن أغش في مواد بناء البنايات التي ترتفع، أو كأن استأجر شقة للجامعة بعقدين: واحد شفوي وآخر مكتوب، وآخذ الفارق لمصلحتي، أو كان أفقد وعيي، بسبب شرب الخمر، وأصرخ في الحرم الجامعي، أو كأن أعود، من منحتي الدراسية فاشلاً ..." وتصمت فيما تصغي الى زميلك يقول: "فقط لأنك مشاغب. ليس الاّ " وتضحك من أعماق قلبك، وتخاطب الأستاذ: "انهم منذ فترة وهم يشوهونني علمياً. وأنت تعرف هذا وقد شاركت فيه أيضاً" وتفترقان.

ويلمحون لك، أيضاً، بامكانية الطرد. يحاولون إنهاء الفصل الدراسي الثاني بتاريخ 1994/7/9 ليذكروك بـ 1991/7/9، يوم غادرت المانيا. ولا تكترث كثيراً للعبة الأرقام. "ليلعبوا كما يشاؤون، أما أنا فسوف أواصل القيام بعملي. سوف أنجز كل شيء، كما ينبغي أن ينجز، ولن ينجحوا في إرباكي مهما تفننوا في ذلك. سأظل متماسكاً ولن تخيفني لغة الاشارة. 1991/7/9 يوم لا ينسى. تبكر استقلال الطائرة الى فرانكفورت، وتنفق الليلة في المطار، وتضيع، هناك، من حقائبك نسخة القرآن، وتكرر طيلة الليل مقاطع من قصيدة محمود درويش:

مطار أثينا يوزعنا للمطارات. قال المقاتل: أين أقاتل؟ صاحت به حامل:

أين اهديك طفلك؟ قال الموظف: أين أوظف مالي؟ فقال المثقف: مالي ومالك؟.
تزوج شاب فتاة ولم يجدا غرفة للزواج
السريع. تساءل: أين أفض بكارتها؟ فضحكنا وقلنا له: يا فتى، لا
مكان لهذا السؤال .....

وتهمس : "7/9/ تاريخ لا ينسى، ولكن الفلسطينيين يمارسون على الفلسطيني ما مارسه غير الفلسطينيين على الفلسطيني. يا الهي! سرعان ما تتحول الضحية الى جلاد".

وتبدو، لك، لعبةَ التواريخ لعبةَ مملةَ. يذكرونك بتاريخ ميلادك وتاريخ زواجك، وتاريخ تعيينك في الجامعة، وتاريخ عودتك، وكانوا، من قبل، يلاعبونك لعبة الأرقام: يحادثونك، يلمحون الى أشياء معينة تقال عنك، ثم يطلبون منك، بعد ذلك رقم هاتفك، فاذا كان الرقم صحيحاً تأكدوا من أن ما يقال ليس سوى اشاعات، واذا ما ارتبكت وأخطأت ثبّتوا عليك ما سمعوه عنك. وفوق هذا كله، يلاحظون، اذا ما أعطيتهم رقم الهاتف، أنك لم تكن ممثلاً، وأنك تثق بهم.

وكانوا أيضاً يقدمون لك القهوة أو الشاي أو العصير، وما زالوا، ليلاحظوا ان كُنتَ تثق بهم أولاً تثق، ان كنت تخاف منهم أو لا تخاف، ليصدروا، بعد ذلك، عَليكَ أحكامهم. ويختلف الرجل ذو الأصول البدوية عن هؤلاء جميعاً. تزوره بعد عودتك. يحضر الماء ويصب في كاس يشرب منها أولاً ويعطيك اياها لتشرب منها ان رغبت، موحياً لك بأنه أعطاك الأمان. "لا ايها المحترم. أنا لست خائفاً اطلاقاً، ولست كما تتصورون". وحين يدعوك رفيق من رفاق الجبهة الشعبية لتشربا معا القهوة تستبدل كأساً بأخرى، مخاطباً الرفيق: "لا أفضل القهوة التي يكون ثمة رغوة أعلاها" تقول ذلك وانت تدرك ان مادة ما وضعت في كأسك خصيصاً؛ مادة تسبب لشارب القهوة صداعاً يُبعد عنه النوم حتى ساعات الصباح. وتعرف أن الرفاق أرادوا أن يبرأوا أنفسهم مما سببوه لك، هناك، من مشاكل، ليضعوا اللوم كله على طرف واحد. "أيها الرفاق أنتم جزء من المشكلة. حقاً انني أحترم الحكيم واقدره، ولكنّ ذلك لا يمنعني من قول الحقيقة كاملةً. لقد حاولت تجنب كارل وألف نون يوم أرسلا بربارة ونينا، وأنتم الذين أرسلوا لي شخصاً يلازمني ملازمة الظل لصاحبه. هل تذكرون باسماً الغزاوي الذي أخذ يحصى عليّ حركاتي لأنكم كنتم تشككون فيّ وطنياً. لعلكم لم تنسوا، وها أنتم، هنا، تعيدون الكرة. كم من اساءة أصابتني بسببكم، وكنت دائماً أحاول، ما استطعت، عدم الاحتكاك بكم !!".

وكنت تعرف انّ الرفاق كانوا هناك يدافعون عن ألف نون دفاع المستميت. يعمل الرفاق معها في مشروع الشعر، ويبررون سلوكهم هذا لأنه يدُرُّ عليهم مبلغاً من المال، ولا يرى الرفاق فيها عدواً، قدر ما رأوا فيها صديقة للفلسطينيين، ولما اختلفوا معها أخذوا يشوهونها، وازدادوا في تشويهها يوم أخذت تدافع عنك علمياً. " أيها الرفيق، انّما استبدلتُ كأساً بأخرى حتى لا أشعر بصداع، ولكي أتمكن من النوم جيداً، حتى أصحو في الوقت المناسب وأتمكن من اعطاء محاضراتي جيداً وبدون ارباك" وتسيران معاً الى قاع المدينة، موحياً له، بسلوكك هذا، انك تسير معه جنباً الى جنب، وانك لا تخاف منه اطلاقاً. " لا ايها الرفيق، انا لست رجب " شرق المتوسط." لقد دافع الرفاق عن ألف نون ودخلوا بيتها وأكلوا من طعامها، وقالوا عن كاسب وفالح الناصري، ما أخذوا، فيما بعد، يقولونه عني، واذا كنت متساقطاً، فأنتم أولاً وأنا آخر المتساقطين".

تغرق في عزلتك. تذهب الى الجامعة. تجلس في مكتبك وحيداً. تقرأ الصحيفة التي يوزعونها مجاناً. تستعد لانجاز ما عليك انجازه. تتحاور وزميلا لك حواراً عابراً. تلحظ أنهم بدأوا يمارسون لعبة أخرى ابتدأت مُنذُ كتبت نصاً أدبياً تتحدث فيه عن المؤسسة وأفرادها. تدرك أن عدد الذين أخذوا يشوهونك علميا، منذ قرأوا النص، أصبح في ازدياد. وتبدأ لعبة القلم والاذن.

" الزملاء الذين يشوهونني علمياً أغبياء أو حمقى. لو نظروا جيداً فيما كتبوا لعملوا بالمثل القائل: من بيته من زجاج فعليه ان لا يرجم الآخرين بالحجارة" وتنظر، منن جديد، فيما يكتبون. يجيد أحدهم الانجليزية قراءةً دون ان يجيدها كتابةً أو محادثة، وان أخذ يتكلم بها بعد زيارته للولايات المتحدة" لقد عاد من سفرته ولم يكمل المدة المحددة له لأنه لم يستطع ان يحاضر في الطلبة " يخبرك صديقك الذي زارك وأنت في ألمانيا، يوم زارك. وتقرأ بحثاً له نشره في مجلة الجامعة للأبحاث، وظف فيه معلومات مأخوذة من مرجع فرنسي، ذكر اسمه في الهامش، دون ان يعرف أبجديات الفرنسية. " لو كان حقاً باحثاً لما فعل هذا " يقول لك زميل ويضيف: " فمن أبسط قواعد البحث العلمي ان يذكر الباحث اسم الشخص الذي ساعده في فهم النص،؛ ويشغل آخر عشرات الطلبة في كتابة أبحاث رديئة ويشجعهم على نشرها في كتاب، ثم يسقط هذا عليك. ويكتب ثالث، دون ان يجيد اللغة الفصيحة، مع انه لا يقرأ الا في مصادر قديمة لغة أصحابها لغة رصينة.

" لا. لن أكتب، الآن، عن مآسيهم التي هي أكثر من ان تحصى " تهمس وأنت تراهم يلعبون لعبة القلم. يرفع بعضهم القلم الأسود ليقول لك ان كتابتك سوداء، ولا تكترث للأمر، فهناك من يرد عليه في اللحظة نفسها. ويرفع زميل آخر

وتحاول، بين فينة وفينة، ان تختبر الطلبة. تسأل، ذات محاضرة، طالبة متميزة عن شاعر عربي بارز فلا تعرف عنه شيئاً. وتخاطب زميلك الذي يتجسس، بدوره، عليك: " تصور يا دكتور انني سألت طالبة متميزة في قسم اللغة العربية عن الشاعر اللبناني أدونيس فلم تقل شيئاً لأنها لم تسمع به من قبل " وتتابع، " وهذه تقيمني علمياً، ويتبع رأيها الفصيل الذي تنتمي اليه، على الرغم من أنني، حين أصحح ورقتها، أعثر على العديد من الأخطاء."
وتخاطب نفسك: " هذا وطن لم يَضِع من لا شيء. لم نكن نستحقه، على ما يبدو، فخسرناه هذه الخسارة الفادحة. " وتراقب سلوك زملائك في الجامعة جيداً. تعرف ان منهم من ينقل أخباراً تتفوه بها. وتلحظ انك تصبح أبا فلان اذا اقتربت من آرائهم، وتتحول الى مخبر، اذا قلت كلاماً لا يرضون عنه، فيضعون يدهم على أذنهم اليمنى. وتكرر العبارة التي قرأتها في نص " ليل الضفة الطويل": " اللعنة على الضفة." وتهمس: " لقد أصبحت اليوم، لأنني انتقدت سلوك الفصائل الوطنية، خائناً. وتؤكد قريبتك هذا: " لقد وضع، على شبابيك شقته، حراسة، لأنه يخاف ان يقتل" ويسألك بعض معارفك ان كنت سترتبط بفتاة من فلسطينيي الداخل حتى تحصل على هوية اسرائيلية، تغادر، بعد ذلك، لتعمل هناك، وتخاطب هؤلاء: من قال لكم هذا؟" وتتابع: " ان الذين قتلوا ناجي العلي لم يكونوا سوى فلسطينيين. نحن القتلة حتى لو كان الموساد هو الذي دبر العملية. لقد اعطينا مبرراً لقتله." وتضيف: " أما انا ايها الصديق فسوف أبقى في هذا الوطن حتى أفصل من عملي، وسوف أصرخ يومها، مستعيراً من مظفر النواب جملة شعرية. سأكرر معه: قاومت الاستعمار فشردني وطني."
تغرق في عزلتك أكثر. تجلس على الشرفة التي اخذت تنقذك من الجلوس مع أهل المنزل الذين لم يختلفوا عن غيرهم. " كان اهلي، وما زالوا، يحاورونني اشارياً. يقولون لي، كل يوم، ما يقال وما لا ينبغي ان يقال. لم تكن امي وحدها تستحق كتابة رواية عنها، مثلها مثل أبي، فأخواني وأخواتي لا يختلفون كثيراً. جميعهم يحاورونني اشارياً، ولا يكتفون هم أنفسهم بهذا. انهم يشوهون ايضاً أطفالهم. كل طفل وله دلالة معينة. وكل لباس وله دلالة أيضاً. ولم يختلف أخي السجين على الرغم من انني كنت أزوره لأخفف عنه." وتسأل نفسك: " هل يتحول العالم كله الى

وتجرب امك، مثل غيرها، الأدوية في جسدك. ينام صغيرك لفترة طويلة، يكاد يموت خلالها لولا اهتمامك به. وتعرف من الصغير انه كشاف، انه جهاز حساس يكتشف الألغام، وان كان ذلك متأخراً، يكتشفها بعد ان يلحقوا به الأذى. امك والاستاذ وحش وقريبتك وآخرون كثر، وتخاطب الصغير قائلاً: لك الله ايها الصغير.!"

الشرفة رائعة. الشرفة نافذتك على اللامدى. تسرق الشرفة منك الوقت وتريحك، في الوقت نفسه، من مشاهدة التلفاز و ما يعرضه أحياناً بقصد. وتتساءل عن تنسيق الفصائل مع الألمان والأردن. يعرض التلفاز الاسرائيلي الجمعة، مساءً، فيلماً معيناً، تشاهده المدينة كلها، ويتعامل الجميع معك، كما لو انك بطل الفيلم. تبدو بطلاً ولصاً وحشاشاً ومقامراً وزانياً، ويغيرون موقفهم منك كل أسبوع. وتشاهد مساء الأربعاء برنامج كتب وكتّاب الذي يقدمه الدكتور زياد الزعبي، وتتمشى صباح الخميس في شوارع نابلس ليتصرف معك الآخرون كما لو أنك الدكتور الذي كان يُحاور. وتتساءل: "هل أصبحتُ حاكماً عربياً يتطلع اليه الشعب كله؟ هل أصبحت أنا ابن المخيم الشاب الذي كان خجولاً وديعاً، الشاب الذي ما كان، ذات يوم، مهما، هل أصبحت شخصاً مهماً تهتم بأمره الدول الكبرى؟".

وتصغي، ذات مرة، الى صديق يقول: "لقد اسهمت القضية الفلسطينية في تدويل ثلاثة أشخاص: "ياسر عرفات وادوارد سعيد ومحمود درويش" وينسى أن يذكر اسم أبي نضال واسمك وتخاطب نفسك: "لا. هذا وهم، فمن أنا حتى يهتموا بأمري". وترى الجندي الاسرائيلي، وأنت عائد من تأبين توفيق زيّاد في أربعينه، يصطاد، صبيحة اليوم الذي اعتقلت فيه، لأنك كنت عائداً من الناصرة التي ذهبت اليها بدون تصريح، تراه يصطاد جرذاً ويعلقه أمامك على السلك. وتتساءل: هل كان ذلك الجندي يقول لي أنني لست سوى جرذ؟ " ولم يقلها الجندي، لك، مباشرة. ولو قالها لربما ذكرته بما قام به أتباع هتلر مع اليهود.

" الشرفة رائعة "تهمس وتتابع: "هذه الشرفة تقودك الى بحر لا ساحل له "وتقرأ قصيدة الشاعر البوهيمي الذي التقيت به ذات نهار:

هل نتقاسم هذا الميرات؟
خذ أنت الزوجة والبيت، خذ الأولاد.
ودع الشرفة لي.

خذ مفتاح الباب وخذ غرف النوم
ودعني فوق السور
أتأمل هذه الزهرة.
خذ أقواس الزينة والألوان
وخذ ماءَ البستان
وكيس اللوز
ودعني أمرض
في الوجه الأبيض
خذ ضوء الميناء
ودع لي هذا القارب
ولنفترق الآن".

وتخاطب محمد القيسي. تقول له : "أيها اللعين، أعرف أنك ما زلت تبحث عن حريتك. الزوجة سجن، والأولاد سجن، وأما السور فقيد مثله مثل غرفة النوم. ويأسرك الوجه الأبيض، وترحل في القارب، تبحث عن شيء مفقود. أيها اللعين! ما أشعرك أحياناً".

وتقودك الشرفة الى عوالم بعيدة. تتأمل البعيد وتبصر فيه الوطن الذي يضيع. تكبرالمستوطنة يومياً، ويصغر الوطن رويداً رويداً. وتجيب صديقاً لك، سألك ذات نهار عن سبب تشاؤمك وعن سبب رفضك للحل الجاري، تجيبه قائلاً: "لا تكمن المعادلة الفلسطينية في القدس أبداً. هناك طرفان للمشكلة يمكن، ان حلا، أن ينجز حل ما: المستوطنة والمخيم. وما دامت المستوطنة تكبر والمخيم يضيق على سكانه، فالقضية في خبر كان".

"من لا الشرفة في منـزله لا منـزل له" تردد أمام زوارك : "نحن شعب لا يستمتع بالحياة اطلاقاً. تصوروا أننا لا نفكر الا في المادة. نستغل مساحة الأرض الصغيرة في البناء، دون أن نفكر في الحديقة وساحة اللعب. المهم أن نبني أكبر عدد ممكن من الشقق عليها حتى نبيعها أو نؤجرها. تمامً كما نفكر في بناء المخازن لتأجيرها، ولا نفكرقليلاً في أنّ مدننا تفتقر الى المتنـزهات العامة والى ساحات اللعب. وانظروا الى كثير من المباني التي تقام في نابلس فلن تجدوا حديقة أو شجرة. لقد تأثرت أرواحنا بصحراء العرب. لقد تصحرت نفوسنا بالمادة".

الشرفة مدى. تحادث، مساءً، القمر. تتأمله. تقرأ فيه ما يجول في خاطرك. يوحي لك بأشياء وأشياء. يحثك على قراءة الشعر وتتبع صورته فيه. وما كان هذا ليتم لولا الشرفة. الشرفة والقمر، وكم من قمر تريك هذه الشرفة، وكم من قمر

"لا. ان طبيعة حياتنا، هنا، في هذا الوطن، لا تمكننا من ممارسة سلوك مثل الموصوف في رواية(زفايج) بسهولة". تقول لهم ان هنا ليس مثل هناك فلا يفهمون. تجلس، هناك، في اوروبا، في غرفتك. تزورك الفتاة، ولا يهتم أحد بأمركما. وتتحادث، هناك، في الجامعة، مع الفتاة، وقد تتحادثان في الشارع، وقد تقيمان، معاً، في شقة الطلبة. هناك عالم آخر. وهنا يحصون عليك همساتك وحركاتك. يراقبونك مراقبة شديدة. يطلقون الاشاعات، ببساطة، ولا يراعون في بعضهم إلاً ولا ذمة. يطلقون، في الاشاعة، ويزوجون بالاشاعة. هنا يشغلون أنفسهم بأخبار الآخرين أكثر مما يشغلون أنفسهم بما هو منتج. "قلت لكم ان هنا غير هناك" وتعرف أن ما هو مقبول هناك ليس مقبولاً هنا،وان كنت تعرف أيضاً ان ما يحدث هناك في العلن يحدث هنا في السر. "اللعينة بربارة، سألتني بعد لقائنا الأول: كيف وجدت تجربتي؟ وحين سألتها: هل هناك حدود؟ أجابتني: لا. أنا لا أومن بالحدود. الحدود وضعتها الدول والحكومات والساسة وعلينا أن نلغيها".

تجلس على الشرفة، كل مساء. تغرق في البعيد. تهرب من سجن الجدران. تمعن النظر في البيوت. تربط بين شكلها وتفكير أصحابها. وتقول ذات نهار: " ليس هناك من شخص حضاري في المكان الذي اقيم فيه سوى جارنا الشيوعي" وحين يعترض البعض على هذا الكلام، ظاناً أيضاً أنك انما تدافع عن الشيوعيين لأنك صديق لهم، تقول: "انما الاحظ أنه الوحيد من بين أهل المنطقة الذي زرع أشجاراً خارج حدود بيته. لقد زيّن الرصيف بالأشجار حتى يبدو الشارع ذا منظر أخاذ. ونحن زرعنا ما تبقى من مساحة أرضنا ولكننا لم نلتفت الى ما التفت اليه، عدا أن قسماً من أصحاب الأرض لم يترك مكاناً لشجرة". وتضيف: "وكان الوحيد الذي يحث أولاده على العمل. يجتمعون، معاً، صبيحة كل يوم جمعة وينظفون الأرض، ويزرعون الأشجار، ويبدو، الآن، الجلوس في حديقة منـزله شيئاً مفرحاً جداً. وأنا

وتبعد، في جلوسك على الشرفة، الكوابيس التي تضغط عليك. تتأمل القمر فلا تفكر في الآخرين. تريح الذهن من حياة الناس وهمومهم ومشاكلهم، من التفكير في جنود الاحتلال وتصادم الشباب معهم، من تدخل الآخرين في حياتك الشخصية، من تذكير الآخرين لك بالفتيات اللواتي عرفتهن هناك، وتذهب الى الفراش، لتنام نوماً هادئاً.

" كنت هناك، في الليل، أصعد الى الأعالي. كنت أرى أشياء عجيبة غريبة. كانوا يضعون قطعة اللحم في الآلة الجهنمية العجيبة ويفرمونها بوحشية عجيبة. ويشارك الجميع في نهشها. يذيبونها ويحولونها الى صابون وكنت أتساءل: انهم هم النازيون؟ هؤلاء هم النازيون!! وأشعر أحياناً أني كنت أشارك معهم. لعنت نفسي على هذا، وقلت: علي أن أبتعد عنهم جميعاً. كنت آكل لحماً ميتاً كان ذلك كريهاً كريهاً جداً. وكنت هناك أيضاً أواصل تعليق الوجوه الكريهة على الأسلاك الشائكة. أربع فتيات هناك، وثلاث هنا، ازدادوا واحدة. كنّ يُحاولنَ صلبي واسقاطي، فصلبتهن لأنجو. وأخذن يتكاثرن. يتكاثرن حتى لم أستطع، هنا، لهن عداً. ويظهرن لي أحياناً على شكل حبّات تين. أتأمل الشجرة التي أثمرتهن، أتأمل ألف نون وزوجها. وأتأمل قادة الفصائل الفلسطينية. كانت ألف نون وزوجها يراقبانني وأنا أتناول التين حبة حبة. اكتفيت، أولاً، بأربع حبات، وأكلت بعض حبات أخريات أكلاً جزئياً سريعاً. ووجدت نفسي أعدو في شوارع المخيم".

وتصغي، وأنت تجلس على الشرفة، الى صوت الرصاص الذي أخذ يلعلع. يحمل أطفال الحجارة الذين كبروا قليلاً السلاح ويسيرون في الشارع، ويطلقون الرصاص، دون أن يتساءلوا عن جدوى ذلك. لم يكونوا يكترثون، كثيراً، ان أصاب شخصاً ما. ويتحدثون، علنا، عن شراء السلاح وسعر الرصاصة ومن يبيعها، وحين كانوا يختلفون، فيما بينهم، يهددون بعضهم بالسلاح، ويشهرونه في وجوه بعضهم. وتقول، ذات نهار، لمسؤول: "هذه أعمال صبيانية، وليس هناك مسؤولون حقيقيون. لو كان العدو يعرف أن هذا السلاح يستخدم ضده لما سمح له بالانتشار على هذه الشاكلة، وهو يعرف أننا نتظاهر به، ونقتنيه لنستخدمه ضد بعضنا". وتتابع: "أمس لاحظت خمسة شباب يسيرون معاً، وكان أحدهم يحمل البندقية ويسير بسرعة، ولو كانت هناك دورية اسرائيلية لما حمدت العواقب. هذا عبث ولا بد من وقفه، وأنتم المسؤولون".

ويختلف أخوك مع شخص يقيم في الحي نفسه. يتابع ذاك رمي صديقه بالحجارة، فتصيب سيارة أخيك الذي يخرج بدوره ليمنع الآخر من هذا العبث. ويكادان يشتبكان معاً لولا تدخل أخ آخر لك. ولكنهما يعاودان الاشتباك. يذهب الشخص الى جماعته ويحضر السلاح الذي كان يخفيه، فيما يذهب أخوك الى المخيم ليحضر أيضاً أصدقاءه ممن يحملون السلاح.

وتجلس على الشرفة، حتى ساعة متأخرة، تخاطب الفصائل التي تختلف مع أفرادها قائلاً: "ها أنا أجلس خارج اسوار الشقة. انني أشرع لكم جسدي فاطلقوا رصاصكم اذا شئتم. أرسلوا من تشاؤون، وسوف أظلُّ أقول ما أراه صحيحاً. أعجبكم ذلك أم لم يعجبكم".

وتعرف أن المرأة تراقبك، وأنها تحصي عليك حركاتك لنقلها الى جهة معينة. ويشاركها جيران آخرون فيما تفعل وفيما تقول. كانوا يراقبون ملابسك، ويلحظون ان كُنتَ تدخن أم لا؟، "وتصبح السيجارة، بغض النظر عن نوعها، ذات دلالة. ويصبح أيضاً مسكها بيد معينة دالاً. اليد اليمين تعني الرجل واليد اليسار تعني المرأة. اذا أمسكتها بيدك اليمين فأنت شبق جنسياً، واذا أمسكتها بيدك اليسار فهي كذلك. واذا أمسكتها، وشعلتها الى الأمام، فهي شبقة من الأمام، واذا كانت النار باتجاه الخلف فهي شبقة من الخلف."

وتمسك المرأة ولاّعة سجائر وسيجارة. تشعل السيجارة وتنظر الى المستوطنة وتدخن، وأحياناً تشاركها فتاة أخرى.

وتحتل الشرفة جزءاً من تفكيرك. تنقذك من عادة الجلوس أمام التلفاز قليلاً. ولكنك سرعان ما تربط بين ما يجري مساءً، وأنت جالس على الشرفة، ومذيعة الصباح الاسرائيلية. وتتساءل عن السر العجيب في التنسيق بين الناس، هنا، وبين الاسرائيليين وتتساءل: "هل كانت المستوطنة تراقب ما يجري؟ أم أنّ روحنا أخذت تحل في روح اليهود؟ هل تتصل السيدة هاتفياً بهم؟ أم أنّ هناك قوةً كونية خفية تربط بين الأطراف وتنظم ما يجري؟". وتنظر الى القمر من جديد: "القمر كوكب في السماء، والقمر اسم فتاة، والقمر نعت لفتاة جميلة، والقمر للشاعر جزء من تراثه الشعري، يقتله حين يختلف مع الشعراء القدامى في رؤاهم، ويمدحه حين يُبادُ بنو قومه ويطردون من ديارهم التي تهوّد، فالقمر شاهد على وجود بني قومه في هذه الديار. وتكرر مع محمود درويش مقطعه: "لنا قمر في اقاصي الكلام" تماماً كما كنت تكرر معه، من قبل، يوم كان شيوعياً ملتزماً: "يا شعراء أمتنا المجيدة، أنا قاتل القمر الذي كُنتُم عبيدة" وتتساءل: أيمدح المرء القمر متى يريد ويقتله متى يريد؟.

وتضحك في سرّك، حين يصبح الجلوس على الشرفة سبباً لنـزع لقب الدكتور منك والغاء شهادتك العلمية، وتهمس: " أما كفى أن يفعل هذا بعض الطلبة الأغبياء، وأكثر الأساتذة الجهلة؟ كم من واحد من هؤلاء، يمنحني اللقب وينـزعه مني! وكم من أديب يفعل هذا أيضاً! وها هي الشرفة الآن تشارك في هذا ". ويعني الجلوس على الشرفة أنك لا تقرأ ولا تكتب، ويعني أنّ هناك قوةً خفية تنجز لك ما تنشره باسمك، وتخاطب الشرفة: "اللعنة، أيتها الشرفة، عليهم لا عليك".

وتبدأ تفكر في كتابة نص قصصي عنوانه "كيف تحصل على الدكتوراة، كيف تفقد الدكتوراة؟ " تكتب فيها عن الفصائل الفلسطينية فصيلاً فصيلاً، وعن الاسرائيليين والأردنيين والألمان.

وتكرر، من جديد، عبارة سعد زغلول التي سمعتها من صديقك القاص أكرم هنية، هذا الذي كان، من قبل، يكررها، كلما زرته في الجريدة، على مسمعك، معبراً عن امتعاضه مما يجري بين الفلسطينيين فيما بينهم، في طرابلس، وانعكاس ذلك على الأوضاع ههنا. ولم يكن أكرم هنية يومها متزوجاً حتى يخاطب زوجته صفية، فكان يخاطب أصدقاءه كلهم.

" مافيش فايدة" وتقرر أن تكتب وجهة نظرك في الرواية التي خططت لها، تلك الرواية التي لن تكتمل ما لم تكتب الجهات الأخرى وجهات نظرها فيك. وتهمس: "وبما أنني غير قادر على كتابة الجزء الخاص بي، باسلوب مباشر، فلا بدّ من اللجوء الى لعبة روائية. وسوف أستعير من رواية تداعيات ضمير المخاطب أسلوبها وأسماء بعض شخصياتها لأكتب عن الفتيات اللواتي عرفتهن هنا، هؤلاء اللواتي مَثّلنَ دور الفتيات في تلك الرواية".

ولكنّك تتساءل:

" وماذا تجدي الكتابة، ولماذا تكتب وجهة نظرك فيما يجري؟ وهل ستكتب الأطراف الأخرى، حقاً، وجات نظرها؟ واذا ما كتبت فهل ستنشر ما أنجزت؟".

"كانوا يأتون إليّ ويسألونني عن الجهة التي تمّول طباعة الكتب التي أنشرها على نفقتي الخاصة، وأخذوا يلمحون الى أنّ هناك جهات أجنبية تقف وراء اصدار هذه الكتب. وكنت أسخر من هذا، فما أطبعه لم يكن يتجاوز مائتي نسخة لا تكلفني جزءاً من راتبي، ومما عاد علي مما كتبت".

وتقرر هذا. وتقرر أن تكتب عن فتيات معينات دون غيرهن، وذلك لأنهن يشكلن حضوراً ينبغي أن يشار اليه حين يكتب المرء عن وطن يخون. وتخاطب ذاتك: "لقد شغلت نفسك ذات نهار بالبحث عن فكرة يركز عليها المسلمون، وهي أن اليهود يوظفون فتياتهم من أجل تحقيق أهدافهم، وأنهم أصحاب أقدم مهنة في التاريخ،

بربارة

تلتقي بها بعد عودتك. تراها من جديد، بعد أربع سنوات غياب. لم يختلف شكلها كثيراً، فما تزال شاحبة هزيلة، وتهمس: "لعلها ما زالت تعاني من المشاكل التي كانت تعاني منها، من قبل!" وتتساءل ان كانت قد قدمت لتزور أهلها، كعادتها، أم أنها ستظل مقيمة هنا. تمكث قليلاً، فقد جاءت لتسلم عليك اثر عودتك، وتنصرف مع أهلها، ولا تعقب على هذا اللقاء، ولم تتساءل أيضاً ان كانت مسرورة في حياتها، هذه المرة.

وتلتقي بها، من جديد، في منزل أهلها. تزورهم وتجلس، قبل تناول الطعام، في الصالة. تتحدث مع أمها فيما تنهمك هي في اعداد الطعام، وتأتي، بعد أن تنهي الطهي، لتجلس مع أمها وزوارها الذين دُعُوا أيضاً لتناول الطعام. لا تتحدثان كثيراً، فيما تراودك بعض الهواجس: "هل كان إعدادها الطعام ذا دلالة؟ هل كان ايحاءً لأمرما؟ "وتطرد هذه الهواجس غير المبررة: "أنا شخص متعب ولا بُدّ من هدوء. سفر ونساء ودراسة وسياسة. اللعنة. لا بُدّ من فترة أسائلُ فيها نفسي".

وتسألك عن أوضاعك وعما ستفعله في قادم الأيام، وتستفسر منك ان كنت ستعود لتحيا، من جديد، مع زوجتك. وتستدرجك بربارة، رويداً رويداً. تستدرجك لمعرفة ما يجول في خاطرك. تقص على مسمعك ما يدور، هنا، حولك من أقاويل، وتتمادى في ذلك فتلمح الى ما يشاع عن زوجتك. وتصغي فيما تهمس: "اذن لقد بدأوا هنا يواصلون ما كان الألمان، هناك، يقومون به" وتتذكر العرب الذين أرسلهم الألمان. "واذا بدأوا باستدراجك فاعرف منهم كل ما يقال".

وتسيران، ذات مساء، معاً، في الشارع. تتحدثان بحرية. تستعيد بربارة ما قالته لك، ذات مرة، من قبل. كانت بربارة قبل سنوات تقص عليك ما سمعته من قريبة

وتبدي بربارة، ازاءك، وداً كبيراً. تتمنى لو أنها حرة طليقة، وتتمنى، أكثر من هذا، أن تصبح حراً. وكنت، وأنت تلحظ هذا تتساءل: "أما زالت تحيا، هناك، حياة رديئة؟ أما زال الكابوس يضغط عليها؟ "وكنت تعرف أنّ بربارة ما كانت، ذات نهار، في حياتها الزوجية على ما يرام، باستثناء فترة زواجها الأولى. لحظتها، هناك، في الشارع، ولم تعرفها في البداية، كما لم تكلمها، ونظرت اليها وهي تقطع الشارع مع امرأة أخرى لتبصر عجيزتها وقد تضخمت، وخمنت يومها أنها سعيدة في حياتها.

" على المرء، ألاّ يجبر أيّ طرف على الزواج ممن لا يحب أو ممن لا يرتاح له. عليه أن يترك للفتاة قدراً من الحرية في اختيار شريك الحياة" أخذت تقول بعد تجربة مرّت بها احدى قريباتك، وحين أصبحت ذا شأن في العائلة، بدأت تمارس هذا مع أخواتك. "فكري جيداً. بامكانك أن تنتظري أسبوعاً أو أسبوعين قبل اعطاء جواب" كنت تخاطب أختك، وتبصّرها بما هي مقدمة عليه، ولم تذهب لخطبة زوجتك إلا بعد أن وافقت هي وعرضت الأمر على أهلها.

وتتساءل ان كانت بربارة تحرص على مصلحتك. ويوم سافرت، إلى هناك، إلى حيث تقيم، ذهبتَ لتودعها على الرغم من سلوك أمها المشين. أرسلت معها بعض الملابس التي أحضرتها، من ألمانيا، لطفلتيك، وقلت لها: "أبلغي أمهم أنه سمع ما يقال".

تُقدم والدة بربارة على زيارتك. تحييك وتأتي فرحة لاستقبالك. وتبدأ، بعد أيام، تتأكد مما سمعته عنك، لتعرف ان كان خلافك مع زوجتك يعود إلى خلل ما فيك أو إلى خلل فيها.

وكانت تعاني من مشاكل ابنتها قدر ما كانت ابنتها تعاني. ورغبت في ان تقدم ابنتها لك على طبق من ذهب. وتحيرها: " ما داموا يلجأون الى لغة الاشارة ويبحثون عن مصلحتهم الخاصة فقط، فلتعاملهم بالمثل، وتبحث انت أيضاً عن الحقيقة، وتلحظ سلوك امها. لقد تأخرت امها في اهدائك شيئاً ما بسبب نجاحك، ويبدو انها، بعد شهرين من محاورتك اشارياً، قد ملت فأهدتك حذاءً. " هذه ايتها المرأة، اذن قيمة ابنتك. انتظرت، انتظرت وقرّ قرارك: لا فائدة ترتجى منك "

وفجأة تطل عليك بربارة. تبصر منتهى الرمحي المذيعة الاردنية وهي تقرأ الأخبار، فتقول امك على مسمعك: انها تشبه بربارة. وتبدأ منتهى دورها، كما تبدأ الأردن مشاركتها في موضوعك. تقول لك منتهى: من خلال ترتيب ملابسها وألوانها، ومن خلال تصفيف شعرها وتمشيطه ما تقوله بربارة عن ذاتها. وقد تجلس أحياناً مع عفاف قضماني التي تتقمص شخصية مطلقتك.

وتلتقي، بعد عام الا قليلاً، من جديد، مع بربارة التي ترتدي الملابس ذات الألوان الدالة. وتسألك كلما زرتهم عن شرابك لتستنتج بدورها شيئاً ما عن تكوينك العقلي او بنيتك الجسدية، وعن صغيرك أيضاً. وتغير، في كل مرة تلتقيان، نوع الشراب، وحين تحضر لك ذات مرة عصير البرتقال تقول لها: أشرب نصف الكأس على شرط ان تشربي نصفه الثاني.

وتحتار بربارة في أمرك. تطلب منك ان تقرأ لها قصيدة شعر كتبتها، وتحول بينك وبين الاصغاء الى نشرة الأخبار. وتختلط الأدوار عليك. تربط بين بربارة هذه، وبربارة تلك، تلك التي مرت في رواية " تداعيات ضمير المخاطب." كلا البربارتين تحب ان تحيا الحياة، هكذا بدون تعقيد. تفكر كلتاهما، ظاهرياً، في ذاتها، وتتساءل: " هل حلت روح بربارة تلك في روح بربارة هذه؟" رأيت المينورا في غرفة بربارة فلم أعد ثانية، وحين ذهبت لتصنع الشاي ذهبت معها، وارتشفت منه قليلاً فيما صرفت النظر الى مكتبتها. وتغادر المنـزل، حين تعرف ان بربارة، هنا، وحيدة. وتجرب، بعد عودتك الى منزلك، الاتصال بها. تتصل مرتين وترد عليك قائلة (آلو) فتضع انت يد الهاتف.

وتهمس: " ما زالت هذه الشقية تمارس عادتها القديمة. ما زالت تقص الحوار الذي يجري بينكما، كله، على مسامع الآخرين! " وتفكر فيما جرى ويجري: " على المرء الا يفكر، اطلاقاً، في الارتباط بامرأة تكون عيناً عليه،، وهذه الصبية ذات أطوار غريبة،، تبدو أحياناً جريئة، وأحياناً اخرى بلا شخصية. تتحدثان معاً أمام صغير يخصها، فتتكلم بالانجليزية حتى لا يفهم ما يجري من حوار، وتنظر الى صغيرك الذي بدا مشاكساً.

وتقص بربارة على امها ما رأته من أمر صغيرك. تغير رأيها فيك، ولا تعرض عليك، حين تزورها، شراباً بارداً.

وتوجه بربارة اليك، حين لا تكترث اليها، غير اتهام. تقول عنك ما يقال وما لا يقال، وتشوهك، وهي الأمية، علمياً. وتمارس لعبة المرأة المتخلفة لا الذكية. تذهب الى زميل لك. وتحادثه حتى تشعل فيك، كما تعتقد هي، الغيرة، وتشيع، فيما بعد، هذا عنك. تقول للآخرين: انه يغار، والغيرة هي سبب مشاكله. وعندما تلتقيان تحدثك بفرح، وتنسى كل ما قالته عنك. تظهر ودها القديم الجديد، فيما تهمس أنت: "كم أنت ساذجة يا بربارة، كم أنت بسيطة!! "وتتساءل، فيما بعد، ان كانت حقاً بسيطة وساذجة، وتتساءل أيضاً ان كانت تقوم بمهمة تشبه تلك التي كانت بربارة، هناك، تقوم بها. ويزداد الأمر تعقيداً، حين تطل بربارة عليك من خلال التلفاز الاسرائيلي، متلبسة شخصية المذيعة جوانا شرفيط. وتخاطب جوانا: كم يشبه وجهك الضعيف وجه بربارة، وان كانت هذه أكثر منك جمالاً ". وتتساءل: هل وظف التلفاز الاسرائيلي جوانا ليقول لك، من خلالها، ما تقوله عنك بربارة؟ وهل عليّ أن أتابع ما تقوله منتهى الرمحي، هناك، وما تقوله جوانا هنا؟".

وتربكك الصبية. تحيرك على الرغم من أنها تأتي اليك، وأنت في الجامعة، لتتحدث معك. وتخاطبك اذا رأتك تفطر في ساعة متأخرة: "بالتأكيد فان هذا هو الفطور الثاني!!"وتخبرك عمّا يجري معها. تتحدث لك بفرح الطفل عن نشاطها وجدها، وتمعن في طلب المساعدة منك، ثم تراقبك، من بعيد. وتقص عليك بعض ما تسمعه عنك. تسألك عمّا تفعل، وتسألك ان كنت ستسافر في الصيف أو في الصيف الذي يليه. وتراقب، من جديد، حركاتك، وفي الوقت نفسه تواصل اطلاق الاشاعات عنك. "انه يشاهد فيلم الأربعاء والجمعة ولا ينجز أشياءه شخصياً "وتواصل: "هناك من يساعده ويصحح له ما يكتب"، وتتحدث بربارة عن انتمائك السياسي، وتزعم أنك تميل الى العزلة وترغب عن مخالطة الآخرين، وأحياناً تحدد انتماءك الفصيلي فتزعم أنك أحد أفراد الجبنة الدنمركية.

وترتبط بربارة، فيما بعد، بألف نون المذيعة هذه التي تلمح لك ان كانت كتابتك بيضاء أو سوداء، وتبتسم لك جلوريا ستيورات حين تشعر أنك تراجعت عن مواقفك السابقة حول ألف نون.

وتبتعد عن الصبية. تغيب عنها فترة طويلة، وعندما تلتقيان تتبادلان الحديث وكأن شيئاً لم يكن، فيوميء لك الآخرون، بعد أن يعرفوا عن اللقاء، بأنك أذن وأنّ قلمك أسود، وتتوحد نظرة بربارة اليك مع نظرة الجبهة الديمقراطية والشيوعيين. وتختلف النظرة هذه بين فترة وأخرى. تقترب منهم فتصبح مبدعاً وناقداً فذاً، وتبتعد عنهم فتصبح متساقطاً ومعتمداً على غيرك فيما تكتب.

وتتساءل: حقاً من هو القمامة؟ أنا أم الآخرون؟!.

ألا يخجل الآخرون من تقلباتهم. وتتذكر الصغير. تحاوره وتحادثه وتهمس له: لا يختلف هؤلاء كثيراً عنك أيها الصغير، وان كنت أفضل بامتياز، فأنت لم تخذل صاحبك، لم تخذله الاّ حين يتآمر الآخرون عليك فيطعمون صاحبك طعاماً ممزوجاً بمادة تُنيمُكَ. وتتساءل، من جديد، عن أمر الصبية. تهمس: "يا الهي ! ما دامت تقول هذا كله عنّي، فلماذا تفكر في الاقتراب مني؟!.

وتوحي لك بربارة بأنها على استعداد للعيش معك حتى لو كان الصغير ضعيفاً. كانت تمشي مساءً مع قريب لها أضعف المرض صغيره وأقعده، وكنت تفهم الشيفرة جيداً. "حتى لو كنت مصاباً بالسكري" توحي لك بربارة "فأنا مستعدة للارتباط بك.

وترتدي بربارة أحياناً اللباس الذهبية اللون، فتطير أنتَ الى هناك، الى بربارة ذات الشعر الذهبي والدفتر الذهبي والملابس الذهبية والحقيبة الذهبية ايضاً. كانت بربارة حين تزورك تصطحب معها حقيبتها ودفترها لتدون التواريخ، وحين ابتعدتَ عنها جاءت اليك، وأنت جالس في المكتبة تقرأ، وجلست على ركبتها وخاطبتك قائلة: "كنت قوياً، فثمة خبر لا يسرك" وأعلمتك أنها حامل، وتمالكت يومها أعصابك، وقلت لها: لا بأس، فنحن العرب نحب الصبيان، وقد يرزقني الله بصبي ذكر، واتفقتما على اللقاء من جديد، لتعرف منها الخبر اليقين. وحينما التقيتما دعتك الى غرفتها فاعتذرت وفضلت أن تمشيا معاً على ضفة النهر، وقبل أن تسألها عما قاله لها الطبيب بادرتك بالحديث قائلة: ليس ثمة أخبار جيدة لك. انني لست حاملاً.

وتذيع جوانا شرفيط، حين تذيع جلوريا ستيورات الأخبار، التقارير دون أن تظهر شخصياً، وتتساءل: " أإلى هذا الحد يبدو التوحد بين بربارة وبربارة وبين جلوريا وألف نون؟" وتتساءل فيما اذا كانت ألف نون اخطبوطاً حقيقياً، وتسترجع الرؤيا: "كانت الدنيا مظلمة، وكنت تسير وحدك، تسير في الخلاء، وتبصر، فجأة، شجرة تين نضج ثمرها. وتقترب منها. تأكل أربع حبات، وتنظر حولك فتبصر ألف نون تراقبك. وتواصل السير الى جهة غير معلومة، فيما تظل ألف نون تبحلق فيك".

"اللعنة عليك يا بربارة، واللعنة عليك أيتها الصبية، واللعنة على السياسة. اللعنة على الفلسطينيين واليهود والعرب والألمان واللعنة على زوجتي التي كانت. كيف يكون أمامي هذا الجمال كله ولا اقترب منه" وتكرر بيت عمر الخيام:

يا رب هل يرضيك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي زلال

وتحزن أحياناً حين يضعون اللوم على الصغيرة فيما تخاطبهم:

" هذا الصغير هو الصديق الوفي!" وتخاطب زميلاً لك في الجامعة"

" لقد صدقت فيما قلت. "ما دام الصغير بخير فأنا بخير".

ويتحدد لقاؤك ببربارة. يقل اللقاء فلا أنت تذهب اليها، ولا هي تتردد كما كانت، من قبل، تتردد. وتحاول اغاظتك أحياناً. "تريدك وتشوهك، فهل تفعل هذا حتى تملكك؟ هل هذا هو السبب في كل ما تشيعه عنك؟ هل تقصد ابعاد الأخريات عنك؟".

وتخاطب نفسك: "وأنت، ولا شك، لا ترغب في قول كل ما تعرفه عن بربارة. فهذا يحتاج الى ساعات وساعات، وأنت لا تحب الاطالة" وتخاطب بربارة: "أيتها الشقية اللعوب، أتذكرين ما قلته لك، في لقائنا الأخير، يوم كتبتُ لك الكلمة التي القيتها في حفل تخرجك، أتذكرين ؟! "يومها قلت لبربارة، وقد جاءتني لأكتب لها ما ستقرأه بمناسبة تخرجها: أما أنا فأميل الى العزلة ولا أفكر بالارتباط بأحد!".

نـينـا

تجلس في مكتبك. ترتب أوراقك وتكتب قوائم أسماء الطلبة التي ينبغي عليك انجازها، وتعتريك، بين لحظة وأخرى، حالة من الضجر. مللٌ لا حدود له. أنت في هذا الوطن محاصر من الجهات كلها، وليس هناك من جديد: قتلى ومنع تجول. تعليق دوام ومهرجانات. خلاف فصيلي وتشويهات متبادلة.

وتذهب الى الكافتيريا لتحضر القهوة. تجلس، من جديد، وحيداً. ترتشف القهوة، وتنظر في كتاب ما، وفجأة تدخل نينا. تقف أمامك منتصبة القامة. ترتدي بلوزاً وتنورة وتلف شعرها بشال أبيض. وتنظر اليها: فتاة بضة ممتلئة ذات عيون واسعة ونظرات أخاذة. تسألك عن بعض الكتب، وتطلب منك كتاباً عنوانه "التراث الشعبي: جذور وتحديات". تخبرها أن تبحث عنهُ، ابتداءً، في مكتبة الجامعة.

تعود نينا بعد ايام قليلة. تخبرك أنها بحثت عن الكتاب في المكتبات فما وجدت أية نسخة منه، وتطلب منك أن تعيرها نسختك الخاصة. وتهمس: "يبدو أن الذين يفتحون منـزلي في غيابي يرون الكتاب في غرفة الضيوف" وتتساءل: "هل يعتقدون، اذن، أنني بدأت أحن الى الجذور؟ هل يعتقدون أنني أصبحت سلفياً؟ وتواصل: "لعلهم يعتقدون أنني أريد امرأة سلفية التفكير أو ما شابه !!".

وتخبر نينا أنّ الكتاب موجود في مكتبة معينة من مكتبات المدينة، وتوضح لها أن بامكانها الحصول عليه، ان لم تجده في المكتبة، من دار النشر التي نشرته. تذكر لها اسم الدار وتعطيها العنوان، وتذهب نينا دون أن يتجاوز الأمر حدود الاعجاب، وحين تحدثك من جديد، تهمس: "تبدو فتاة مثقفة" وتواصل: "ولديها قدر من الثقة في ذاتها".

وتقف نينا، بعد ايام، أمام الطلبة تناقش الكتاب، وتزورك، في مكتبك، من جديد لتسألك عن رأيك فيما أنجزته. تشجعها قائلا: "لقد كنت رائعة يا نينا" وتسألها عن قراءاتها واهتمامها بالثقافة، وتعرف منها أنها تطالع كثيراً. تشجعها من جديد، وتعطيها نسخة من كتاب أصدرته مؤخراً فتشكرك على صنيعك هذا وتنصرف لتعود بعد لحظات طالبةً منك أن تكتب على النسخة بعض العبارات، فتكتب: "الى نينا مع أمنياتي لك بالمتابعة والتوفيق" وتغادر.

وتأخذ نينا الكتاب وتُري اهداءك الى التيار الديني، وتعرف هذا من زميل لك جاءك مبتسماً وأوحى لك بأنك طيب القلب ملمحاً الى ما فعلته قبل قليل. وتتأكد، بدورك، من أن التيار الديني يقف وراءها،وتهمس: "ها هم المتدينون، اذن، يوظفون فتياتهم للتجسس عليك أيضا".

وتقرأ في نص "ليل الضفة الطويل" ما ورد من كتابة عن المتدينين أولئك الذين يهاجمون الغرب ثم يجرون وراء المستشرقين، حين يأتي هؤلاء في زيارة، من أجل أن يساعدوهم في الحصول على منحة، ليخبروهم، بعد ذلك، عنك بما يعرفون وما لا يعرفون. وتهمس: "ويسهمون، مثل غيرهم، في بث الاشاعات، دون أن يختلفوا عن غيرهم" وتنتابك لحظات حزن وأنت تلحظ تلميحاتهم، وبخاصة حين يضعون لك الصنوبر في الطعام ملمحين الى أنك، حين تمارس الجنس، انما تمارسه بعدَ أخذ ابر، " اللعنة عليكم" تخاطبهم وتضيف: "ولا تختلفون عن غيركم، كثيراً، سوى أنكم أكثر ثرثرة".

وتدرك، حين تلتقي ونينا، أنك تحاور، من خلالها التيار الديني، وتكتفي بتبادل التحية معها، دون أن تخوض في أي أمر.

وتزورك نينا، بين فترة وأخرى. تسألك عن بعض الكتب وتستفسر منك عن أشياء وأشياء. وتحاورك، في الوقت نفسه، اشارياً. توحي لك بأنها على استعداد لأن ترتبط بك. تحملُ مجموعة قصصية عنوانها "وردة لروز .. وردة لفائزة" وتفهم قصدها: "وأنني على استعداد لاحتضان الصغيرتين".

وتظل نينا، في الامتحان النهائي، تنتظر حتى يخرج الطلبة جميعاً. وتحدثك قليلاً فتدعوها الى المكتب لتشربا معاً القهوة. وتأتيك، فيما بعد، في الموعد الذي اقترحته. تجلس بالقرب منك وتحادثك بفرح بيّن، ولا يقطع حواركما سوى امرأة جاءت لتزورك بدون موعد مسبق، وتسألك هذه التي كانت ترمز الى مطلقتك ان كنت تستطيع اعارتها نص "ليل الضفة الطويل" الذي تملك نسخة منه، وتواصل كلامها: "غدا نريد أن نسافر الى القدس لنقف أمام الحاجز الاسرائيلي محتجين على

وتخاطب نينا بوضوح. تقول لها ما تفكر فيه، وتوحي هي لك بما تفكر فيه، وتهمس: "لا تختلف نينا عن الآخرين. أكلمها بصراحة فتكلمني بلغتين: بالكلام الفصيح وبلغة الاشارة". ولا تستريح لهذا. تغادر هي وتبقى أنت في مكتبك.

وتفكر في أمرها. تخاطب ذاتك: "تريد نينا أن تقبل أنت بكل ما يُقال عنك وعن مطلقتك. تريد منك أن تقبل بوجهة نظر التيار الديني الذي كان على صلة بالاستشراق الألماني" وتتساءل بألم: "يا الهي! لماذا يزعج هؤلاء الآخرين بالحديث عن حروب صليبية؟ "وتسترجع ما جرى بينك وبين نينا في الجلسة ما قبل الأخيرة.

توحي لك نينا بأشياء عجيبة. تقرب يدها من فمها وتقبلها كأنما تريد أن تقول تقول لك عن شيء خفي في حياتها؛ عن سر عجيب تطلب منك كتمانه. وتلم بك، فيما بعد، حالة من الحزن، حزن ممزوج بقرف: "كم من عيب فينا نعرفه جيداً، ومع ذلك نتحدث عن عيوب الآخرين ونخوض فيها حتى لو أصابت أناساً أبرياء لا ذنب لهم في كل ما يجري؟".

وتغيب نينا. تغيب أشهراً طويلة لم تكن تراها فيها الاّ لمحاً. تراها أحياناً في الشارع، وأحياناً في ساحة الجامعة، ولم تعودا تتبادلان النظرات. وتعرف أنها أخذت، بعد لقائكما الفاشل، تشوهك علمياً في ناحية محددة، وان كانت تدافع عنك في أمور أخرى. "لم تختلف نينا عن بربارة" وتصبح في نظر تيارها الذي يضم أساتذة ليس لهم في الحركة الثقافية حضور يذكر، وفي نظر الاستشراق ذي الصلة بتيارها، غير كفء علمياً.

وتظهر نينا، بعد ثمانية أشهر، تظهر من جديد. وتراها يومياً. تعود لزيارتك كما كانت تفعل من قبل. تستفسر عن عناوين كتب، وتجلس، في المحاضرة، أمامك. فتاة بضة هادئة رزينة فارعة الطول ذات نظرات آسرة. وتعترف بينك وبين نفسك أنها لاقت هوى في نفسك، ولكنك تهمس: "ولكن هناك أشياء لا يمكن أن أسجلها على نفسي. "وتتذكر ما قلته لها في لقائكما الأخير: "لي شرط واحد لمواصلة الحوار: أن تقولي لي لمن تنقلين ما يجري بيننا من حوار، ومن هو الطرف الذي يقف وراءك. "وتخاطب ذاتك: "وها هي نينا، على الرغم من غضبها، في حينه، وانصرافها، ها هي تعود من جديد".

وتبصر نينا كل نهار. تحاورك اشارياً. ترتدي الملابس ذات الألوان الدالة. تمسك بالقلم الذي يتغير شكله أحياناً. تحمل حقيبتها ذات القطع الحديدية الصفراء الخمسة. تريك القطع أحياناً، وأحياناً تخفيها.

وترمز السترة الليلكية التي أخذت ترتديها الى أنها لك. "ليلك" "لي لك"، وحين ترتدي البلوفر ذا اللون السكري توحي لك بأنها على استعداد أيضاً للارتباط بك حتى لو كنت مصاباً بمرض السكري. وترتدي البلوفر الأخضر لتقول لك انها خضراء جريئة وشجاعة، كما ترتدي التنورة السوداء، لتقول لك انها سوداء، وتغير اللباس في اليوم التالي فترتدي التنورة الصفراء لتقول لك: "ان ما يشاع عنّي ليس سوى غيرة."

وتراها في المنام. تراها أحياناً فتاة سوداء، ذات فم واسع جداً. وأحياناً تراها فتاةً بيضاء الى جانب فتاتين صغيرتين. وكنت وأنت ترى فمها الواسع تستعيد عبارة قرأتها في قصة لسارتر من مجموعة "الجدار" يقول فيها الشخص الرئيس: "صحيح أننا نعتليهن دائماً، الاّ أنهن هن الرابحات، ذلك أنهنّ يفترسن أسفل باطننا بفمهن الواسع" وكنت تتساءل عن فم نينا الواسع أين يكون، تماماً كما كنت تتساءل ان كنت ترى في المنام ما يقال عنك وعن الآخرين، في اليوم التالي!.

وتصبح خبيراً بلغة الاشارة. تحفظ اشارات الآخرين ودلالاتها. تمسك نينا بالقلم الأسود ذي الممسك الأصفر لتقول لك انهم يغارون حين يتهمونك، وتريك البقع الحديدية الخمسة الملتصقة بحقيبتها. " الخمسة الذين شوهوك، هناك، علمياً، يغارون منك. وتغير نينا موقع الحقيبة، تحملها بيدها اليسرى، وتخفي النجوم الخمسة، حين تخطئ، أحيانا قليلة، خطأ عابراً، أو حين لا تفهم نينا ما تقول، تماماً كما تفعل هذا حين تقول كلاماً لا يعجبها، أو حين تغض الطرف عنها.

" عجيب أمرك يا نينا. لقد هزلت كثيراً وأكثر مما يتصور المرء. أعرف مقدار الشوق الذي يعتمل في داخلك. اعرف هذا جيداً، وان كنت أحياناً تربكينني. لا تختلفين عن بربارة كثيراً. " تقدمن راغبات، وتعرضن وانتن راغبات أيضاً. ولكنكن لا تدافعن عن خياركن. تقعن اسيرات للجهات اللاتي تحرككن. انت و بربارة ويوهان وأندريا " وتواصل خطابك: " وما يحيرني، يا نينا، في أمرك هو جلوسك الدائم بالقرب من الفتاة التي تبدو على صلة بتلك المرأة التي تدعى انها على صلة بالجان."

تجلس نينا، كل نهار، وتجلس الى جانبها طالبة تقيم في قرية قريبة من المدينة، اشتهرت القرية من خلال امرأة يذهب اليها الناس حتى تقرأ لهم ما سيلاقون في قادم الأيام، أو ما يعانون منه من مشاكل. وتبدأ الفتاة القروية

وتخاطب الآخرين: "اذا كان ارتباطي بنينا يعني أنني أسود، فلا أريد ارتباطاً مثل هذا، ولا أدري لماذا ترتبط نينا بشخص أسود، اللهم الاّ اذا كانت هي سوداء ".
وتواصل: "ولماذا ترتبط أيضاً بشخص عاجز"، وكانت نينا، حين يشاعُ عنك هذا، تجلس بالقرب من طالب يده اليمنى ملتوية وغير صحيحة، طالب تذكرك حقيبته التي يحملها بعيد الله الجزائري الذي ورد ذكره في رواية "تداعيات ضمير المخاطب".
وتحيرك نينا وتربكك أيضا. تذكر على مسمعك اسم رواية "شرق المتوسط" لتوحي لك بأنك مثل رجب، وقد تسألك، أحياناً، عن رواية نجيب محفوظ "اللص والكلاب" لتوحي لك بأنك اللص وأن الآخرين كلاب. وتتساءل: "تعجب نينا التي تقيمني علمياً، تعجب بما أقول وأصبح، بالنسبة لها، نموذجاً تحب الاقتداء به، والسير على نهجه، ولكن لماذا تلمح بما تلمح اليه؟ "وتأتيك نينا، مراراً، لتسألك كيف تثقف نفسها"!.
ويشجعك زميلك البطحيش على الارتباط بها ليؤكد ما يشيعه وأخوه الزلقوط عنك. وتنتظرك نينا، في الامتحان الأخير، في المساق الأخير، وتسألك، ولم يبق غيرها الاّ طالب واحد، ان كنت ما زلت عند رأيك فيما قلته لها، العام المنصرم في المكتب؟ وتتحدث لك عن أهلها وتشجيعهم لها على الدراسة. وتظل عند رأيك: لا شروط ولا تفسيرات تُسيء الى مطلقتك وأطفالك.
وتمر نينا، من أمام المكتب، مع أخيها. يحثك البطحيش® على محادثتها ويذهب خارجاً، فيما تظل جالساً على مكتبك، غير مكترث لها.

يوهان

® البطحيش والزلقوط شخصيتان برزتا في مسلسل "نهاية رجل شجاع" المأخوذ عن رواية حنا مينة، وهما شخصيتان قميئتان جداً، تتسمان بالبلطجة والرخص.

تمر يوهان من أمام مكتبك مراراً، وتشاهدها دون أن تمعن النظر فيها، تمر مثلما تمر غيرها من الفتيات اللاتي يدفعهن الفضول لالقاء نظرة على هذا المكتب أو ذاك، وسرعان ما ينصرفن.

وتبصرها غير مرة في الممرات الكثيرة المنتشرة، هنا وهناك. وتراها أيضاً حين تزور صديقا يدرس الأدب الانجليزي. وتثرثر يوهان مع هذا أو تلك، تثرثر ولا تراها الآ وهي تتكلم وتحرك جسدها مع حركات لسانها.

وتمر الأيام بطيئة كسولة تسرق منك عمرك دون أن تلتفت الى أهمية الزمن، ودون أن تلتفت الى يوهان أيضاً. تواصل حياة بدون شهية. تجلس في مكتبك، كعادتك، تقرأ في كتاب أو تحادث زائراً من الزائرين الكثر الذين يأتون بسبب وبدونما سبب، حتى لكأن المكتب مقهى لا مكان راحة للمدرس. وتهمس وأنت تبصر القادمين والرائحين والجالسين على حافة الشباك يثرثرون بلا نهاية: "لا شيء يهز القلب في هذا االمكان. لا شيء يثير الروح في هذا الزمان"، وتخاطب محمود درويش: "لا أكتب مدائح البحر حتى أحاصر كل هذا الحصار في هذه المدينة القديمة التي لا تقع مباشرة على شاطىء المتوسط.

وتأتيك يوهان. تأتيك فتاةً ربعةً ممتلئة ذات شعر أشقر قصير ووجه لا يخلو من حبّ الشابات. تقرع الباب وتستأذنك بالدخول فلا تمانع. وتنظر الى يدها وهي تحمل كيساً من النايلون وزعته شركة سجائر WAVE. وتسألك يوهان بأدب جم وابتسامة مرحة ان كان لديك متسعٌ من الوقت لتثرثرا معاً.

وتقص عليك شيئاً عن حياتها. تعلمك أنها تدرس الأدب الأنجليزي في احدى جامعات الوطن المحتل، وتطلب منك أن تساعدها في كتابة بحث. وتنظر اليها. تتأمل ملامح وجهها. تتابع حركاتها وتصغي الى حديثها، ثم تعتذر قائلاً: يا يوهان، أعتذر لأنني مشغولٌ ولا وقت لدي الآن لافادتك فيما سألت، ويمكن أن تعودي في فترة لاحقة فقد أكون كونت فكرة عمّا تريدين".

وتنظر اليك يوهان نظرة غضب، وتعاتبك قائلة: "أنت لا تريد أن تساعدني" تودعك وتغادر، فيما تتساءل: "ماذا تريد الآنسة؟ ماذا تريد؟".

وتمر الأيام دون أن ترى يوهان فلم تعد تمر من أمام مكتبك، ولم تعد تذهب الى زيارة صديقك. وتخمن أنها استاءت من سلوكك في حينه، وعدم اكتراثك لها.

وتأتيك يوهان، بعد أيام، من جديد. تأتيك وصديقة لها تعرفها جيداً وتراها يومياً. تقرعان الباب ثم تدخلان، وتسألك يوهان، من جديد، ان كان لديك متسع من الوقت هذه المرة، وتبتسم لك فتبتسم لها ولصديقتها. وتبدأ يوهان كلامها. تعاتبك، اولاً،

وتجلس يوهان، وتجلس صديقتها أيضا. تخبرك المزيد عن طبيعة البحث الذي تريد أن تكتب فيه، وتنهي كلامها قائلة: "وأنا هذه المرة، أطمع في مساعدتك" وتبتسم، تعدها خيراً، وتنصرف وزميلتها.

وتعود يوهان، من جديد. تعود لا لتسألك عن أمر مساعدتها وانما لتخوض معك في أمور شخصية. تستدرجك رويداً رويداً. تثير أمامك العديد من الأسئلة، فتقول لها: ها أنت يا يوهان تعرفين عني أكثر مما أعرف عن نفسي، وربما أكثر مما أعرف عنك. وتثير أمامها من الأسئلة الكثير. تستدرجها لتعرف الجهة التي أرسلتها، فتدرك أنك تستجوبها، وتخاطبك قائلة: "هل كنت موظفاً ذات نهار في جهاز مخابرات؟ "فتبتسم لها وتقول: لا. ولكني أحب أن أعمل في جهاز المخابرات الفلسطينية حين نقيم دولتنا". وتصاب يوهان التي أخذت تبحلق فيك بالذهول، وتخاطبك قائلة: "أنت لستَ سهلاً". وتبتسم، من جديد، وتقول: ولماذا أكون كذلك؟ وتضيف: وأنت يا يوهان لست بسيطة. وتغادر يوهان. تغادر بعد أن أذهلها الكلام، الذي قلته لها، ولكنها تظل تلاحقك.

وتتوطد العلاقة بين يوهان وتلك الفتاة التي تعرف عنك الكثير. تلك التي تدرسها، وتعرف عنك، من خلال محاضراتك، رأيك في أمور اجتماعية وأخرى سياسية. وتعرف صديقتها ايضاً أن هناك شائعات تشاع عنك لها أول وما لها آخر، وتخبر هذه تلك.

وتبتسم لك يوهان، حين تلتقيان. وتبادلها الابتسامة بمثلها. وتعرض عليك، من جديد، أن تشربا، معاً، القهوة. تعتذر غالباً، وتبحث عن مبررات تبدو مقنعة. أحياناً تقول لها : "ليس لدي متسع من الوقت، الآن" وأحياناً تخبرها، وأنت تضحك، بأن الطبيب منعك من شرب القهوة، فيما تدرك هي التي تشعر باحباط أنك تتهرب منها.

ولا تملّ يوهان من عدم احتفائك بها والتفاتك اليها التفات الذكر للأنثى. تزورك بين فترة وأخرى. تعيد على مسامعك بعض الأسئلة، وتكرر دعوتها اليك لكي تشربا القهوة معاً. وحين تستجيب لها أحياناً تأخذ تحدثك عن أهلها. تخبرك أن والدها ميت، وأنها تعيش مع أمها وحيدة على الرغم من أن أخواتها يقمن في المدينة نفسها. وتناقشك في بعض ما كَتَبتَ مؤخراً. تناقشك في كتابتك عن عبد اللطيف عقل الشاعر، وتبدي رأيها بصراحة. تقول : "انه لم يعجبني كثيراً، فأنت تتهجم عليه، ولو كان حياً لما جرؤت على أن تكتب عنه ما كتبت". تبتسم لها وتقول:

ولا يعجبها، من جديد، كلامك. تغادر وعلامة عدم الرضا بادية على وجهها. وتأتيك صديقة لها، من الريف، وبيدها مغلف. تقول لك هذه التي تتبع خطى ناجي العلي في رسم الكاريكاتير: "هذا المغلف من يوهان". وتقرأ، بعد أن تفض مغلفها، أوراقها. تقرأ ما كتبت ولا تكترث للأمر، فيما تهمس: "يعجبن بك، ويأتين اليك، وحين لا تلتفت اليهن، تبدأ الاشاعات على افواههن". وتخاطب صديقتها قائلاً: "لو كانت يوهان جريئة لأحضرت المغلف بنفسها".

وتبصرك يوهان وأنت تسير في الممر. تبتسم لك، وتأتي لتحادثك. تعتذر عمّا بدر منها وتقول: "لقد عرفت من صديقتي أنك غاضب منّي" فلا تعقب، وتواصل يوهان كلامها: "ولو كنت أعرف أن ذا يغضبك لما فعلته "وتقترح عليك، حتى يرتاح ضميرها المعذب، أن تشربا معاً القهوة. وتقص عليك أنها يوم أبلغتها زميلتها برد فعلك، تقص عليك أنها، يومها، لم تستطع النوم. وتخاطبها وأنت تبتسم لها: "لا تعقدي الأمور كثيراً يا يوهان، فليست الأمور على هذا القدر من المأساوية".

وتواصل يوهان زيارتها. تضع حقيبتها أمامك، فتتساءل "هل ثمة مسجل فيها؟". تبدأ يوهان الكلام. تخبرك أنها قرأت الرواية، وأنك حين تشبهها بيوهان في الرواية فانما تظلمها وتسيء الظن بها. "انني فتاة ريفية بسيطة، وليس هناك من جهة أرسلتني لأنقل أخبارك اليها". وتخوض يوهان في موضوعات شتى. وعندما تخبرها أنك لست مستعداً دائماً للخوض في مثل هذه الموضوعات، تغادر حزينة غاضبة.

ولم تعد تلتفت اليها، واذا ما حيتك اكتفيت برد التحية بمثلها، تبتسم لها ان ابتسمت لك، وان هزّت رأسها هززت رأسك، وان مرحبتك بمرحبا مرحبتها بمرحبتين.

ولا تكل يوهان ولا تملّ وتغضب منك، وتجلس في الممر، وتواصل المشي مع صديقتها، وتحاورك من بعيد. تنظر اليك، وأنت تحاضر في الطلبة، من النافذة، وتحرك شفتيها حركات ذات دلالة. تريد أن تذكرك بيوهان في رواية "تداعيات

وتتأكد من أنّ يوهان على صلة بجهة ريفية. تعرف أنها رسولة فئة من الريف، كما تعرف أن نينا رسولة فقراء المدينة، وأن بربارة رسولة فئة من فئات البرجوازية ذات قدرة على تحديد وظيفتك في الجامعة. ويقول الذين يلحظون أنك تحاور يوهان، يقولون عنك إنك أخضر.

وتحدثك يوهان عن حياتها الخاصة. تخبرك أنّها كانت مخطوبة لشخص ما ثم فسخت الخطبة، وكنت تراها أحيانا في النوم تتحدث عن صغيرك الذي لم تره، وكنت تبصرها ذات فم واسع مفترس كأنه فم الفك.

وتحاورك يوهان اشارياً. ترتدي بنطال التايت الأسود والقميص أبيض اللون، وترتدي أحياناً البلوفر الأخضر لتقول لك أيضاً انها خضراء. وتخاطب نفسك: "وها هي تكرر ما فعلته، وما زالت تفعله، كل من بربارة ونينا".

ولا تلتفت اليها، وهي تخرج لسانها من فمها وتمصّ شفتيها. ولا تلتفت الى حركاتها واشاراتها، والى اصطحابها فتاتين صغيرتين، لتقول لك ما قالته لك نينا.

وتظل ترى يوهان. وتظل تنظر اليها وهي تنظر اليك. وتبتسم لها كلما ابتسمت اليك. وتظل تحادثها وتحاورها حتى عندما تكون في عجلة من أمرك، ولا تحتار وهي تدير ظهرها لك أو وهي تتظاهر بأنها تقرأ. وتراقبك يوهان في ذهابك وفي ايابك، ويواصل ابن الريف الذي يعجب بما تقول التلميح لك بأنها في يده، وأنه يستطيع أن يقدمها لك زوجة، وتعرف هذا وهو يمسك بدفتر اللغة الانجليزية. يحاورك نيابة عنها. يخاطبك بعبارة يا رجل ويا زلمة. ويمد يده اليك ليقول: يقف الريف وراءك في حربك، ولن تستطيع الجامعة فصلك.

وتخاطبك يوهان، ذات مرة بجرأة لا حدود لها. تستوقفك وأنت تهبط الدرج، وتقف على درجة أعلى من الدرجة التي تقف عليها، كأنما تريد أن تقول لك أنا أعلى منك مقاماً، وتقول لك: أنا أحبّ أن أجرب الأشياء. وتفهم قصدها وتقول: لا وقت لدي الآن، فثمة محاضرات ينبغي أن ألقيها، ويمكن أن نتحدث في هذا، فيما بعد. ولا يأتي ذلك الوقت.

وتهمس مخاطباً ابن الريف: "أنا لست ضد المدينة، ولست ضد الريف ولست ضد المخيم، ولست أيضاً مع أي فريق منهم، وتتابع "وهم الذين يصرون على هذا التمييز".

ولا تقول ان يوهان ليست جذابة. لا تفكر في جمالها وعدمه كثيراً. "لا اريد زواجاً فصيلياً أو زواجاً تتبعه تفسيرات عديدة ويوهان لا تختلف كثيراً، عن نينا وبربارة، وان كانت أكثر منهما جرأة".

وتترك يوهان تمارس عاداتها: تشرب القهوة وتهتم بأمر ملابسها ذات الدلالات المختلفة. وتتركها تسير في الممرات وهي تحمل رسائل غسان كنفاني الى غادة السّمان، تتركها تسير غزالة تقفز من مكان الى آخر، وتخاطبها من بعيد: "لقد أطلقت الاشاعة ومشيت، وليس هناك من ضرورة للوقوف مع نينا لتقصي عليها ما حدث معك، فقد عرفتها قبل أن تعرفيها".

أندريا

"تلك الفتاة التي تبدو رصينة". تشغلك هذه أكثر من غيرها. "أين عرفت فتاة مثل هذه "وتتابع: "هل حلت روح أندريا في رواية "تداعيات ضمير المخاطب" فيها؟ هل تشبهها الى ذلك الحد؟".

تعترف بأنها شغلتك أكثر من غيرها. لم تكترث اليها، يوم رأيتها تقف تحت الدرج وهي ترتدي البلوفر الأسود وبنطال التايت الأبيض. وحين رأيتها للمرة الثانية، تحت الدرج أيضاً، خاطبت نفسك قائلاً: "تبدو متعجرفة نوعاً ما". ولم تكن تعرف عنها أي شيء. لم تكن تعرف اسمها أو اسم عائلتها، ولم تكن تعرف ان كانت طالبة في الجامعة أيضاً.

يقول لك زميل، ذات يوم، بعض المعلومات عنها. يذكر لك الرفيق: "لم تكن على وفاق مع زوجها فتركته وعادت ولم تربط بين الاسم الذي ذكره وبينها، تلك التي أخذت تسير مع طالب درسته بعض المساقات لعلك تلتفت اليها وأنت تحدثه.

وتراها ولا تتحادثان، على الرغم من أنها أخذت، أيضاً، تسير مع طالبة من قريباتك. ومع أنها نظل نكرة الاّ أنها تلفت انتباهك. تنظر الى جسدها البض الممتليء، الى قامتها الممشوقة وملابسهاالأنيقة، وتهمس: "تبدو أنيقة أناقة البرجوازيات في هذه المدينة"، ويبرز بنطال التايت الأبيض عجيزتها بشكل لافت.

وتمر الأيام. تبصرها من بعيد، دون أن تحادثها، ودون أن تعرف اسمها ايضاً. وذات نهار، فيما أنت في شوارع المدينة تلتقي وزميل لك في الجامعة. تهربان من رصاص الجنود وحجارة أطفال المدينة، وتصعدان الى مقهى لتشربا الشاي معاً. ويبدأ زميلك يثير الأسئلة. يسألك ان كنت ترغب في الزواج، ويذكر لك اسم فتاتين برجوازيتين مطلقتين. وتجيبه بأنك تعرف احداهن لأنك درستها أما الثانية فلا

تراها من جديد. تراها وقد عرفت اسمها. تراها وهي تصعد الدرج وتراها وهي تهبط الدرج. كأنما كنتما، يومياً، على موعد. تعطي محاضراتك الساعة العاشرة وتأخذ محاضراتها في العاشرة. ويجمعكما الممر في العاشرة الا خمس دقائق. وتتبادلان النظر وتتحاوران أيضاً. وتعرف أنها كانت تحاورك نيابة عن امرأة أخرى هي مطلقتك، فقد تشابهت تجربتهما، كما يزعم بعض الناس هنا. كلتاهما عاشتا في المنفى، في الغرب، لفترة وعادت تطلب الطلاق. وتهمس من جديد: "كم تبدو لغة الاشارة مزعجة"؟ وتواصل الهمس: "تقول شيئاً فيفهمون عكسه تماماً" وتدندن مقطعاً شعريا لتوفيق الحكيم:

مخمورٌ يطرق باب الحان
ويخرج يهذي بالألحان
يسرق حلى زوجته
ويهديها لعشيقته
يسرق حلى عشيقته
ويهديها لزوجته
من تكون زوجته؟ من تكون عشيقته؟

وتخاطب ذاتك: "أحاورها لذاتها وتحاورني نيابة عن غيرها". وتبدأ، حين تلتقيان في الممر، تغض الطرف عنها، فتنظر الى زميل لك لتلفت انتباهك. وتتساءل: "أتعرف ما تشيعه بربارة عنك لتمارس ما مارسته تلك؟ وكانت بربارة تقول انه يلتفت الى تلك الفتاة التي تلتفت الى غيره. ولا تدري من أين اكتشف المخترعون، هنا، هذا. وتواصل تساؤلاتك: "هل ثمة صلة بينها وبين بربارة؟ " وسرعان ما تتراجع عن أسئلة مثل هذه، فأنت تعرف أنك مشاع، وأن أهل المدينة يتداولون أخبارك، كما يهتم بها غيرهم، وتعرف أيضاً أنك أصبحت ميكي ماوس العجيب الغريب الذي ينتظر الصبيان رؤيته بصبر فارغ، وها هم الآخرون يتحولون الى صبيان ولا أكثر.

ويقترح عليك زميلك الذي قصّ عليك بعضاً من حكايتها، ان كنت ترغب في الارتباط بها، أن تحادث قريبتها. وتبدأ تحاورك من جديد. ترتدي المعطف ذا الكم الأبيض والأسود لتقول لك، حين تعرف أنك تنظر الى الأمور مثل هذه النظرة، انها أيضاً تنظر الى الأمور على هذه الشاكلة.

وتعرفان، من جديد، مواعيد ذهابكما وايابكما. كأنما تتواعدان يومياً على اللقيا. تصعد الدرج نفسه، وتقول لك، اشارياً، ما يقوله الآخرون عنك. وقد تسمع كلاماً لا يعجبها، فلا تنتظر لتعرف وجهة نظرك على حقيقتها. وتبدي غضبها. ترفع القلم ذا اللون الأسود لتقول لك ان كتابتك سوداء، وقد تقول لك ما هو أكثر من هذا.

وتبتسم في سرّك: "هذه الفتاة تبدو مزاجية جداً ". وتعرف كل ما يقال عنها. تزور قريبتك في المستشفى الانجيلي، وتلتقي بابنها الذي كان يعرف، من خلال قريبة له، انك تحاورها. يلمح اليها ويرفع يده اليسرى مبرزاً ساعته ذات الاطار الأسود، فتفهم أنها سوداء، ولكنه لا يطعن فيها أخلاقياً. يقول: ان الذين يشوهونها أخلاقياً ليسوا صادقين.

وتذهب وصديق لك، ذات نهار شتوي، الى المبنى القديم للشركة التي كانت تعمل فيها. يخاطب صديقك شخصاً يعرفه، فيوحي لك الآخر بأنها سوداء، وأنها، حين كانت هنا في الشركة، كانت على صلة بشخص ما.

وتهمس وأنت تسائل نفسك عما يجري: "لعلها مظلومة" وتتابع: "والناس، هنا في مجتمعنا، يشوهون بعضهم البعض، اذا اختلفوا عائلياً. وقد تصبح المرأة، اذا طلقت من زوجها، داعرة. ويشارك أهل عائلته، كما يشارك أهل عائلتها، في تشويه الطرف الآخر. وليس هناك، في هذه المدينة وفي ريفها ايضاً، من يكتفي بالقول: لم يتفقا فافترقا. ولا بدّ من سبب يقنع الآخرون به. ولا بُدّ من أن تطعن في الطرف الآخر".

وتبتسم وأنت تراها مغتاظة: "لا ينبغي أن أعاملها بالمثل " وتقول في سرّك: " انني أعرف كل ما يُشاع عنك، ولكنني لن ألجأ الى طريقتك". كأنما تخاطبها. وتحمل، ذات مرة، حقيبتك السوداء بيدك اليسرى وتمر بالقرب منها، فتقول هي هذا للآخرين، وتدرك أنت أنها فهمت أنك تعني مطلقتك. ويختلط عليك، من جديد، وعليها أيضاً الدور والممثل. وتفكر: "لا بدّ من وضع النقاط على الحروف".

وتحادث قريبتها بالأمر، فتمر هي من أمام مكتبك وهي ترتدي الأبيض والأسود، وتمر أمّها ايضاً من أمام مكتبك. وتختلف الأمور، بعد ذلك. ثمة من قال لهم كلاماً مغايراً. ولا تكترث للأمر كثيراً. فأنت تعرف المدينة جيداً. تعرف عائلاتها وطرق تفكيرهم، وتعرف أن هناك ترتيباً تراتبياً لهذه العائلات، وأن هناك أعباء اجتماعية تترتب على ذلك، تماماً كما تعرف أن قسماً كبيراً من بنات البرجوازية يعنسن لأنهن لا يتزوجن، ويدهشك اميل حبيبي لأنه ذكر سبباً لهذا لم يكن قد خطر على بالك، وذلك في روايته "المتشائل":

"اما العجيب في الأمر فهو أنّ صباني نابلس، بعد ربع قرن من هذا الكلام، اتقنوا اللغة العبرية في أقل من سنتين.
ولما تحوّل أحدهم الى صناعة الرخام علق على مدخل جبل النار لافتة بالخط الكوفي المقروء جيداً عن مصنع "الشايش" الحديث لصاحبه مسعود بن هاشم بن أبي طالب العباس. و "الشايش" هو الرخام بالعبرية. فليست الحاجة أم الاختراع فقط، بل أيضاً مصلحة كبار القوم، التي أرخصت أمهاتهم فقالوا: الذي يتزوج أمي هو عمّي! ومن مصالحهم أيضاً أن يحولوا بين العامة والاتفاق على لغة مشتركة، حتى ولو كانت الاسبرنتو، لكي لا يحولوا بينهم وبين ملكهم".
وتعرف أنّ أندريا سليلة العائلات البرجوازية التي تتباهى بالحسَب والنسب، وتعرف أيضاً أنها تشتري الملابس المستوردة، فتذهب خصيصاً الى تل أبيب لتأخذ ما يروق لها، وتعرف فوق هذا أنها تحب السكن في أحياء المدينة الغربية، لأنها الأحياء الراقية، وهي أيضاً تحب السفر، كل عام، في رحلة الى الخارج. ويقول لك قريب لك ما يُشاع عن والدها، وكيف أنه واحد من أفراد المحفل. وهذا ما لم تكترث له، لأنك تعرف أن العلاقة مع العائلة تسوء اذا ما ساءت العلاقة مع ابنتها. وتكرر قول المسيح: ماذا لو ربح المرء العالم كله وخسر نفسه؟ وتتأكد من هذا، من خلال تجاربك.
وتفكر أندريا فيك تفكيرك فيها. ويتواصل الحوار الإشاري. تتخلى عن الدور الذي تقوم به لتحاورك عن ذاتها. تجلس في كافتيريا الأساتذة الى جانب أستاذ جامعي درس في ألمانيا وثلاثة طلاب، وتضع على أذنها اليمنى قرطاً ذهبياً يميل الى الصفرة. وتفك الشيفرة جيداً.
كان الأستاذ الجامعي هذا لا يناقش في الأمور السياسية كثيراً. يقوم بوظيفته، ويغادر الى منـزله ليحيا مع زوجته الأجنبية وأطفاله في أحياء المدينة الراقية، وربما يزور أهله في الريف القريب زيارةخاطفة سريعة. وكان الثلاثة طلاباً. وتعرف أن أندريا تقول لك: كن مثل هذا الأستاذ لتصبح دكتوراً فيما يبقى الآخرون طلاباً. وتضحك في سرّك "كانني أنا الذي يمنح الآخرين الشهادات أو لا يمنحهم اياها" وتخاطب أندريا: "هذا شأن الألمان وحدهم، ولا رأي لي في هذا، واذا اقتنع الألمان أنهم يستحقون الشهادات فعليهم أن يعطوها لهم، والاّ ..." وتواصل سيرك في الممر. وتواصل خطابك لأندريا: "وأريد أن أقيم في شقتي، في شرق المدينة. ولن أكون العود الذي يأخذه الآخرون من كوم القش".
وتبدا أندريا تشكك في شهادتك. وتدرك أنّ الارتباط بها يعني أنك لم تحصل على الدكتوراة، وتدخل أندريا في لعبة تعدد مواقف الأطراف، وتتبنى وجهة نظر بعض

"لو قلت لك يا أندريا أنني أصحح أيضاً لحملة شهادة الدكتوراة في الأدب العربي، فماذا ستقولين؟ "تسأل أندريا، والذين يقفون وراءها أيضا.

وتحتار في أمرها. تكتب قصائد رديئة تخاطبها فيها، وتتركها على طاولتك، وتغادر الى الجامعة، ولا تعرف كيف تصل القصائد اليها. وتعرف أن فصيلها الذي يشترك، مع أهلك في فتح شقتك يقرأون ما تكتب ويعممونه على الآخرين. وحين تنام ذات نهار، عصراً تزورك أندريا بفستان أسود لا ترتدي تحته شيئاً. وترى فمها واسعاً جداً، وحين تصحو تربط هذا بما تشيعه عنها فتيات المدينة وبعض شبابها. تسير، ذات عصر، مع فتاة برجوازية، فتحدثك هذه عن نفسها ثم تلمح الى أندريا قائلة: "بنطالها من الخلف شارلستون، ومن الأمام تايت" وتضحك، وتضحك أنت أيضاً لأن التي قالت هذا كانت تبدي استعداداً واضحاً للخروج معك، وكان الآخرون، حين يلحظونك معها، يحملون سيجاراتهم بيدهم اليسرى ويجعلون النار جهة الخلف، فتعرف أيضاً أن هذه أيضاً، من الخلف شارلستون.

وتزداد حيرة في أمر أندريا. يحاورك عنها غير طرف، وتتساءل ان كان لها غير ولي أمر. يدعوك زميل لك الى مكتبه، يحادثك عن حياتك الخاصة، وعندما تمر أندريا، يشير اليها، ويوحي لك بشروطها. وتهمس أنت: "يا الهي! لماذا لا تتحدث هي عن ذاتها؟"، وتستغرب أن تكون سليلة البرجوازية على هذه الشاكلة، وتستغرب أكثر، لأنها في مكان عملها، وفي الجامعة أيضا، تتحدث أحياناً مع الآخرين.

وتترك أندريا وشأنها. تتركها تمر وتترك الآخرين يحاورونك بشأنها حوار الأصم مع الأعمى، وما أنت بأعمى، وان أخذت تتعامى. وحين تطل عليك أندريا من خلال المذيعة الأردنية اخلاص يخلف العبادي تهمس: "ليست أندريا جريئة أبداً. تريد، مثلها مثل بربارة، كل شيء، ولا تريد أن تعطي شيئاً"، وتواصل: "وها نحن نتحاور عاماً كاملاً دون جدوى". وتسير وأندريا كل باتجاه. تسيران خطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيا.

ضمير المخاطب

وها أنت تصبح خميس:

"ويصادق خميس الشباب الذين هم على صلة بالفتيات، ويتقرب منهم حتى يعرف أخبار الفتيات ويحصل على صورة واحدة أحبها، من أخيها، وأخذ يري الصورة للآخرين. وكان يظل يدور حول بيتها، صباح مساء، ويمني النفس بالزواج منها" تدون هذا عن خميس وتتساءل: "وماذا في ذلك؟ "أليس الرجل رجلاً؟ وماذا يعيبه؟ شكله القميء! ومتى كان الرجال في المظاهر؟". وتخاطب الذين يطلبون منك أن تصحو من أحلامك: "وانظروا الى جلالته كيف يختار من النساء أجملهن!" ولم يكن، يومها، السيد الرئيس قد تزوج، وعندما فعلها لم يقل الناس: صام السيد وأفطر على بصلة، وانما استبدلوا الكلمة الأخيرة باسم سيدة الوطن الأولى.

وتخاطب فيك خميس الذي أوجدوه: "من حقك، يا خميس، أن تفعل ما يفعله الآخرون، وانّ كنت عزفت، منذ فترة، عن فكرة الزواج". وتلتفت الى قريبة أندريا البعيدة، الآن، وتخاطبها قائلاً: "كم من مرةٍ رَحّبتِ بخميس وجعلت منه سيداً وتلتفت أيضاً الى شباك بربارة وتهمس: "وأنت ألم تأتِي مراراً؟ ألم تشربي النارجيلة وتديري قفاك موحية" وتواصل وأنت تنظر الى غرب المدينة: "ولقد ذبتِ يا نينا وذبلتِ، وقبّلت، ذات مرة، يدك مومئة وموحية، ولم تكن يوهان مثلك". وتخاطب ذاتك: "يوهان أكثرهنّ جرأة وصراحة".

وترى خميس على ما كان عليه. شعر كث ووجه حنطي اللون يزداد اغراقاً في التجعد، وبنية قصيرة تزداد قصراً كلما اصبح أكثر سمنة. وتخاطبه وهو جالس على مقعد أمام بقالته: "ما زلت يا خميس تحلم. ألا تذكر ذلك المساء الذي جئتني فيه تحذرني من الاقتراب منها ولم تصدق أنني لم أكن أخرب عليك، وكانت الغيرة فيك تشتعل".

وتضحك، في سرّك، حين يذكر الآخرون اسم خميس. تضحك لامن سلوك خميس أو على خميس، فهو صديق قديم، وانما من سلوك الأخريات وعليهنّ، ومن أفراد الفصائل الذين صدقوا كذبهن، وهم يعرفون، قبل غيرهم، أنّ بعض معارفك قد عرضوا بناتهم عليك.

ويلحُّ عليك سؤال أندريا: " من أنت بالضبط؟!" وتحنّ الى توبنغن، وتسأل نفسك السؤال نفسه: "من أنا بالضبط؟" وتكرر عبارة الراوي في رواية " موسم الهجرة الى الشمال:" هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد؟ قال انه أكذوبة؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة؟ "(ص52). "والاّ فلماذا استخدام اسلوب ضمير المخاطب الوهمي؟ هل هو مجرد لعبة فنية يلجأ اليها الكاتب حتى لا يؤاخذ على ما

"تصل البناية، هذا الخميس، متأخراً بعض الوقت، تصعد الدرج رويداً رويدا، وتترك القدس خلفك، لتذرعها أرجل المارة: عرب ويهود وأجانب من مختلف الجنسيات ..".

وتخاطب السادة قائلاً:

"لست وهماً ايها السادة،! لست وهماً على الاطلاق".

وتتابع:

"لقد حدث معي ما قرأتموه، من قبل، وما تقرأونه الآن، وأنا لا أبالغ في الأمر. انني، هنا، منذ ثلاث سنوات. أعرف الناس ويعرفونني، وكانت بيننا، من قبل، علاقات اجتماعية انسانية. كنا نتبادل الزيارات والهدايا، وننفق أحياناً، معاً فترات طويلة: في الشارع وفي المكتبة وفي المقهى. ولما سافرت!! وتتوقف. تصمت قليلاً. تتأمل ما أنت فيه.

"ليس ما حدث معي محض خيال أو ضرباً من التمثيل. لقد ساوموني، وأنا في ألمانيا، على أن أعتبر هذا الذي جرى وهماً. لقد ساوموني فرفضت، وأخذت أقرع جدران الخزان، مخالفاً ما فعله أبطال "رجال في الشمس". وربما لهذا لم أمت ميتتهم".

وتخاطب السادة:

"وما قرأتموه ليس سوى قليل من كثير" وتواصل: "لقد قال لي، ذات نهار، قريب: لو حدث لغيرك ما حدث معك لأقيمت الدنيا وما أقعدت".

وتغرق في وحدتك. وتتذكر، من جديد، تتذكر ما حدث معك. تتذكر التفاصيل التي غابت عن ذهنك:

تعود من سفرك وتجد الحقيبة الجامعية موجودة خلف سريرك. تفهم مغزى ذلك: "لقد حصلتَ على شهادتك من خلال مساعدة الفتيات اللاتي نِمتَ معهن في الفراش".

ويزورك الأصدقاء. يزورك دكتور جامعي يزعم أنه مضطهد علمياً، ويلجأ، بسبب ذلك، الى مهاجمة الجامعة والعاملين فيها، ويعقد الندوات ليوضح ذلك، ويؤسس جمعية أكاديمية سرعان ما تندثر، يزورك مع زوجة أخيه الألمانية لتكلمك هذه

وتزورك قريبتك في اليوم التالي. تسألك عن الذين زاروك مساء أمس، وتكرر على مسمعك عبارة الدكتور الجامعي قاصدة من وراء ذلك ان كنتَ تعرف أنها على صلة بالدكتور الجامعي أو بتلك الجهة التي نقل اليها الكلام.

وها أنت أيها الدكتور لا تختلف أيضاً عن بقية أفراد الجامعة".

وتتعقبك الطالبة الشقراء. تنقل اليك كل صغيرة وكبيرة. ويذكرانك معاً بألف نون وابنتها بالتبني: بيبو. ويمنحك الدكتور الدكتوراة ويسحبها منك ايضاً. يناديك تارة باللقب وطوراً بدونه ويسقطه عنك قصداً اذا ما اختلفتما سياسياً.

" وكنت أقرأ للدكتور بعض ما نشره من كتب وألاحظ الركاكة في اسلوبه، تماماً كما هو الحال عند غيره من أساتذة الجامعة، هؤلاء الذين لا يجيدون، باستثناء اساتذة قسم اللغة العربية، وان كان أيضاً بعض هؤلاء يكتب بلغة لا تليق بالشهادة التي يحملها وبطبيعة تخصصه، هؤلاء الذين لا يجيدون الكتابة بلغتهم الأم اطلاقاً. ولقد جاءني الدكتور، ذات نهار، وهو يحمل مخطوط رواية، وطلب مني أن أبدي رأيي فيها، باعتباري ناقداً روائياً. ولما كانت الرواية ضخمة الحجم، فقد قرأت منها مائة وخمسين صفحة، ثم أعدتها الى صاحبها قائلاً:

"لقد دونت بعض الملاحظات، وأعدت صياغة بعض الفقرات، ومع ذلك فعليك أن تعيد النظر فيها، وأنصحك بألا تقدم على نشرها الآ بعد اعادة كتابتها، فالسوق الأدبية في فلسطين مليئة بالأعمال الأدبية الرديئة، وليس هناك من ضرورة لأن تتراكم هذه. وعليك أيضاً أن تفكر في أمر القراء الذين ينبغي أن ترتفع بذوقهم الأدبي، وأن تحثهم أيضاً على القراءة لا أن تحول بينهم وبينها، ولن يتم لك ذلك الا من خلال نصوص جيدة ومتميزة" وقد عقب يومها على ما سمعه قائلاً: "أما أنا فلا أهتم بأدبية ألأدب قدر اهتمامي بالتعبير عن موقف معين أرغب في توضيحه للناس وايصاله لهم، وأنا، فوق ذلك، لا أخاطب فئة محدودة، فالمثقفون لا يعنونني كثيراً".

"وكنت وأنا أرى سلوك الدكتور هذا أفكر في أمر أبي الزعيم الذي وردت كتابة عنه في نص "ليل الضفة الطويل". يسافر أبو الزعيم في بعثة علمية لمدة شهرين، وحين يعود ينشر خبراً طريفاً في جريدة نابلس، يوضح فيه أنه قد عاد بعد أن أنجز بحثاً كتبه باللغة الانجليزية. وتقص الخبر، لاستغرابك، على صديق لك يدرس في قسم اللغة الانجليزية، وذلك لأنك بأبي الزعيم أخبر وبلغته الانجليزية أعرف، فيعلمك هذا أن زميله في القسم قد ترجم له الدراسة من ألفها الى يائها.

" وأنت أيها الدكتور حشرة!".

كنت تعرف أن الدكتور حشرة يقف، من قبل، الى أقصى اليسار، وها أنت تراه لا يختلف عن السابقين.

" كان الدكتور حشرة يعتبر نفسه واحداً من عشرة مثقفين في الضفة الغربية، وقد أسهم أيضاً في تأسيس الجمعية الأكاديمية للاعلاء من قيمة الثقافة ونشرها. واعتبرني، في البداية، واحداً من هؤلاء العشرة، وسرعان ما اسقطني منهم لأنني تحدثتُ عن كتاب له حديثاً لم يرق له.

وها أنت تشوهني، كما يفعل غيرك. وها أنت تزعم أنني لا أجيد الألمانية محادثة. هل تذكر ذلك اليوم الذي التقينا فيه صباحا.

قلت للدكتور حشرة أنني سأكتب عن كتاب أصدره مؤخراً، وأبديت له رأيي في الكتاب فلم يعجبه، وعقب مرتبكاً: أليست لديك، الآن، أية أعمال أخرى سوى الكتابة عن كتابي؟".

ولا يقتصر الأمر على زملائك في الجامعة. يتفشى أمرك كما يتفشى مرض الطاعون. ويصل الى أعضاء اتحاد الكتاب والى الصحفيين، ويبدأ كل من يريد أن يقول كلاماً للآخر، ويخشى من قوله مباشرة، يبدأ بقوله على لسانك، وهكذا تبدأ حربك مع الجميع، لتزعم زميلة لك أنك لم تترك واحداً وشأنه، وبالتالي فلم يبق لك صديق يدافع عنك.

"لا. لن أخوض في الأمر كثيراً. قلت لكم، من قبل، ان قصتي لن تكتمل ما لم تشارك الأطراف الأخرى في كتابتها، وما لم تبدِ وجهة نظرها فيها. وسيظل النص نصاً روائياً مجهضاً شخوصاً وأحداثاً ما لم يكمل القراء، والآخرون ايضاً، ما غاب عني أو ما لم تحفظه الذاكرة، أو ما لم أعرفه شخصياً. ألا تلاحظون مثلاً أنني لم ألتفت كثيراً لعنصر الوصف؛ وصف المنزل أو الطبيعة أو شكل المدينة أو ملامح الشخوص، وأن ما كان من ذلك كان وصفاً عابراً".

ويشغلك، في وحدتك، أمر الصغير. يشغلك لأسباب عديدة أهمها اهتمام الآخرين به، وتكرار الحديث عنه تكراراً جعل منه، خلال السنوات الثلاث، موضوعاً يخوض فيه كل من يعرفك ويعرفه: هناك وهنا من تابعي الفصائل.

ويشغل الصغير أيضاً حيزاً من أهتمام التلفازين الاسرائيلي والأردني. "وأخذت أنظر الى المذيع سعيد القاسم الذي يقرأ نشرة أخبار السابعة مساءً، وقد حلت روحي، على ما يبدو، في روحه، وأتابع ما يقوله لي، اشارياً، شخصياً. أنظر في ملابسه التي يرتديها، والى ربطة عنقه التي أصبحت معادلاً للصغير وما يقال عنه. وقد كانت تبدو كبيرة حينَ يُشار الى أن الصغير كبير، وتبرز صغيرة حين يُشاع أن

" وأخذت وأنا في الحمام، حيث يدخل الصغير معي، أخذت أخاطبه:
"وأنت أيها الصغير! ألا تستحق أن يكتب عنك فصل خاص في رواية "وأتابع:
"لقد كنت محور اهتمامهم جميعاً. الذكور والاناث. المحرمين عليك والمحللين لك. فكم من واحدة هناك، داعبتك ودللتك وقدرتك حق قدرك. وأنت تعرف، أكثر من غيرك، أن ما ورد في رواية "تداعيات ضمير المخاطب" عن اللواتي عرفنك، قليل من كثير. وتعرف أن بربارة كانت جريئة جداً. قالت لصاحبك: "هذه الدنيا لعبة، ونحن نمارس فيها ما يبعث على السرور. كل ما يفرح أقبل عليه بفرح". ولهذا أقبلت عليك، وداعبتك بيدها، وبفمها قبلتك أيضاً. وأخذت تتأمل فيك، ولم تحزن للاعوجاج في قامتك، وأنت أصغيت الى صاحبك حين تذكر قصة سارتر (اروستراث) وما ورد فيها على لسان بطلها عن شكل العلاقة بين الرجال والنساء في الفراش، أصغيت اليه جيداً. وقلّبَت بربارة الوضع. اعتلتك وأصبحت جزءاً منها. وكانت أندريا أكثر جرأة وخبرة. رأت من الصغار عدداً لا بأس به. هكذا أفهمت صاحبك، وأخبرته عن علاقات عديدة، وأدرك من خلال كلامها، وهو ما أكده سلوكها، أنها مجربة حقاً. تحدثت عنك أندريا بفرح، قارنت بينك وبين غيرك من الصغار، وقالت، ذات مرة، لصاحبك: "سعيدة من تملك صغيراً بهذا الطول". وعرف صاحبك أن صغيره ذو مكانة بين الصغار. لقد قالتها له امرأة عرفت الصغار، وقدرتهم حق قدرهم. ولكنك يومها، على غير عادتك، لم تبكِ اطلاقاً. لم تذرف الدموع فرحاً.
حقاً، أيها الصغير، انني أخرج عن المألوف، حين أخاطبك بهذا، ولكنك محور اهتمام العالم كله. أنت تعرف زيلكة. كانت هذه تضع، لأجلك، في خزانتها، غطاءً خاصاً. فهي تريدك وتخاف منك. تريدك لأنها لا تستطيع أن تعيش بدونك، وتخاف منك لأنك أكبر مشاكس في هذا العالم. "ليس لك صديق أيها الصغير "هذا ما يقوله الناس، عنك، في هذه البلاد، هذا ما يقولونه عنك، عندما يذكرون شخصاً لاإلاَله ولا ذمة. ولم يواصل صاحبك، العلاقة مع زيلكة، على الرغم من أنها عزفت لك الموسيقى، وكنت تعرف أنه يزعجك بهذا.
ويوهان. ألا تذكر يوهان. تلك التي حاولت أن تغرر بك حتى يكون لها صغير له صغير مثلك. جربت يوهان، وأنت تعرف هذا، أن تعرّيك. ولم تختلف كاترين عنها. هل تذكر كاترين جيداً؟.

انك ايها الصغير محور الكون. أعرف هذا، وأنا ألاحظ الآخرين يتحدثون عنك. يريدونك أن تكون دائماً قوياً. يصبح صاحبك رجلاً اذا كنت دائماً قوياً، ويتحول الى امرأة اذا ما نمت.

وكم من رجل حولته، ايها الصغير، الى شبيه بالأنثى. كم من شخص أقلقت وكم حلت بين أصحابك والنوم. ألجأت الناس الى السحرة والكهان، وألجأتهم الى بائعي المكسرات وخبيري الأعشاب. ألم أقل لك انك كبير كبير بمقدار ما أنت صغير. ومن غيرك يستطيع أن يحمل ملايين البشر؟ قل لي، برب صاحبك، أي مكان في هذه الدنيا يتسع، غيرك، للملايين. أنت مجرة من المجرات. أنت الذي أخرب البيوت وعمّرها. لأجلك تطلقت النسوة، ولأجلك أيضاً تعارف الناس وتحابوا. ولأجلك أهلك الله القرية اللعينة. وأنت الذي سيدخل الآخرين النار.

آه أيها الصغير! لو كنت تقص ما حدث معك لأخرست أفواهاً كثيرة. أنت الصادق الوحيد، واذا كانوا لا يصدقون صاحبك فليسألوا اصحاب تلك الأفواه التي افترستك، فما من شك أنها جريئة ولا تخاف من شيء.

آه أيها الصغير! لقد حاولوا قتلك. حاولوا ذلك مراراً. وكنت تقول لصاحبك من يؤذيه ومن لا يؤذيه. لقد كنت البوصلة التي تعين الاتجاه الصحيح وتقود اليه. آه لو كنت تتكلم. لو لم تكن أخرس أعور، لو لم تكن كذلك لدافعت عن صاحبك وعنك مما به تتهمان. لك ولصاحبك الله! لقد تحملتما ما تعجز الجبال عن تحمله، ومنك تعلم صاحبك أن يكون صبوراً وقوياً.

وكما عرف صاحبك العرب والألمان واليهود وآخرين، فقد عرفت اليهوديات المرسلات من الموساد، والألمانيات المرسلات من العرب والألمان، ولم تعرف العربيات المرسلات من العرب، فحصار ذوي القربى أشد واقسى. ونجوت، مثل صاحبك، باعجوبة. أيها الصغير الذي في عزلتي أحادثه، الصغير الذي جعل روائياً يكتب عنه رواية، وآخر يلجأ الى استخدام ضمير المخاطب الوهمي فيخاطب الوهم، لأنه لا يجد في هذا العالم من يبثه أحزانه: أيها الصغير، لك كما للسيدات اللاتي تقف لهن، أقف احتراماً!!.

وتفكر في كتابة قصة عنوانها: "ما تقوله الأفواه التي عرفت الصغير عنه" وتتراجع عن ذلك لئلا يثير لك هذا الكثير من المشاكل؛ المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية مثل طباعة النص ونشره. وتخاطب الصغير، من جديد:

"وتعرف أيها الصغير أنك عرفت أفواهاً عديدة اختلفت فيما بينها شكلاً وحجماً. ولا تعرف أنها أخذت تقص عنك قصصاً عديدة، قصصاً متباينة ومختلفة، وان كان صاحبك عرفها جيداً" وتدون بعض المسودات لتلك القصة:

"ويبدو أنّ بعض أصحاب تلك الأفواه كنّ يبحثن عن المتعة بغض النظر عن شكل الصغير ومنظره وأناقته، وبعضهن كنّ شغوفات بمقارنته مع غيره من الصغار. وكان أيضاً يعكس حالة صاحبه ويتأثر بهاالى حد كبير. يتمدد ويتقلص حتى ليبدو وكأنه دودة، وكان أيضاً يسترخي، أحياناً، كما لو أنه لا يبغي شيئاً سوى أن يظل متمدداً غارقاً في الظلمة ساعات وساعات، دون أن يذرف دمعة واحدة يعبر فيها عن فرح ما أو حزن ما، وبخاصة اذا ما بكى صباحاً، كما بكى يوم التقى الدنمركية لقاءً عابراً، وكانت هذه ما تزال بضة لا خبرة لها بملاعبة الصغار، أو مداعبتهم. وقد صرخت وهو يزعجها ويصر على ايذائها، وخلافاً لها كانت أندريا ونينا وبربارة اللواتي أقبلن عليه دون أن يخشى منهن، فقبلهن مباشرة، وهو ما لم يفعله مع يوهان وزيلكة والدنمركية وكاترين الأنثى وكاترين الرجل، فقد خشي منهن ووضع حاجزاً بينه وبينهنّ، وقبلهنّ من وراء حجاب.

ولم يكن الصغير يمارس حياته بهدوء كامل سوى مع امه الحقيقية. كان يتصرف معها تصرف الواثق فلا خوف من شيء ولا اكتراث لشيء ايضاً. يداعبها مساءً ويداعبها صباحاً، ويسترخي في فمها كما يشاء، وقد لا يبكي الاّ اذا أخذت تبكي، حتى اذا ما بكى دون أن تشرع هي في البكاء وبخته ووبخت أباه الذي لم يستطع تربيته جيداً، وكانت تقول : اما أن نبكي معاً أولا يبكي وحده".

وتختلف الفصائل والاسرائيليون والألمان والأردنيون حولك أيها الصغير اختلافهم حول صاحبك، وها أنت تشغل حيزاً من تفكيرهم يوازي الحيز الذي شغلته القضية الفلسطينية في الفترة نفسها. وتكتب في المسودة، مسودة القصة أيضاً:

"وقد أخذوا، حين كانوا يقولون انه حي يرزق، يرسلون الي دكتوراً جامعياً درس في ألمانيا وأقام هناك علاقات مع نسوة عديدات، منهن أندريا التي أبدت اعجابها بالصغير وصاحبه. كما أرسلوا، حين كانوا يقولون انه ميت، موظفاً صغيره، كما يُشاع، ميت".

وتكتب أيضاً:

"وأطرف ما في الأمر أن فتاة جاءت، ذات نهار، تسأل عنه، فطلبت من صاحبه عنوان "محمد وتد" عضو الكنيست الاسرائيلي سابقاً ورئيس تحرير جريدة كل العرب لفترة، وجريدة البيارق، منذ صدورها حتى توقفها، وأجابها صاحبه: يمكن أن تذهبي اليه مباشرة وبدون وسيط. فقالت انها جربت الاتصال به مراراً، ولكنها لم تنجح في العثور عليه، وأضافت: يبدو أنه يتهرب من اللقاء".

وتخاطب ذاتك: "وها أنت، فيما تقول وتتصرف، تحير الآخرين وتربكهم". وتواصل:" وها هم يحللون أقوالك، ويحللونك أيضاً نفسياً. وتتساءل كما

"وكنت أعرف عيد جيداً. كان طالباً في قسم اللغة الأنحليزية، وهو أردني الأصل، وقد أحب لميا الطالبة أيضاً، دون أن يكترث الى أنّ خالها قائد فصيل فلسطيني، وأدهشني الأمر حين أصغيت الى صديقه الذي أصبح ايضاً دكتوراً في أحد أقسام اللغة العربية في الجامعات الأردنية، وهو يحدثني عن عيد وما آل اليه، وان أخذ يدافع عنه قائلاً: صحيح أنه مخابرات الا أنه يساعد أصدقاءه كثيراً".

"وها أنت تصبح خبيراً بمصطلحات علم النفس التي نسيتها!" "هل تلجأ الى ممارسة الاسقاط حين تقول شيئاً ما، عن شخص ما؟ هل تسقط ما في نفسك على الآخرين أم أنك تعبر عما في ذاتك حقيقة؟".

" وهل تفعلون أنتم الشيء ذاته؟ هل تسقطون ما عندكم علي؟".

ويختلط الحابل بالنابل. وتفضح المدينة، كما المخيم والقرية، ماستر الله من أمور أفرادها وأسرارهم. وتصبح ملماً بما يُقال عن كثيرين منهم.

"بعد عودتي زارني صديق وأخذ يقصّ عليّ ما يعرفه عن زوجة شخص اشاع عنّي في غيابي أشياء وأشياء، وكان يريد من خلال ذلك أن أقصّ، بدوري، ذلك على مسمعه. قال لي مثلاً ان شرطياً - وقد ذكر اسمه- يزور ذلك الشخص في بيته ويمارس، على مرأى من الزوج، الجنس مع الزوجة. وآثرت الاّ افعل ذلك مع كثيرين ممن أعرف اسرارهم وأسرارهن. وقلت: اذا تمادوا في حماقاتهم فسوف ألمح ولن أصّرح، ولن أذكر ايضاً الأسماء، وذلك لأن الناس هنا يعرفون عن بعضهم الكثير ويفهمون الأمور فهماً سريعاً، أو على الطاير كما يقولون".

"وها أنت تلاحظ هذا كله، من الفلسطينيين ومن الاسرائيليين ومن الألمان أيضاً، ها أنت تكرر أمام الآخرين عبارات يحدد معناها السياق العام للكلام مستفيداً من دراستك لعلم الدلالة" وها أنت تكرر مقولة البنيويين: "الرمز ثابت والمرموز اليه يحدده السياق".

"وكنت أنظر الى الآخرين وهم يطلبون منّي ألا أكتب تفادياً لاشكالات عديدة وأكرر مقولة الأخ القائد الرمز التي نطقها، وهو في تونس، أمام يوني بن مناحيم، ولم يكتف بها، وانّما حرّك اصبعه في الهواء، والمقولة معروفة ومشهورة وهي: ان ديمقراطيتنا سكر زيادة. كما أخذت أكرر مقولاته ونحن نتقاتل فيما بيننا ونتخاصم: "نحن شعب الجبارين"، وكنت، وأنا أنظر الى ما آلت اليه الانتفاضة من وضع

وتقرأ في بيانات الانتفاضة التي توزعها الفصائل. تلحظ، من بعيد، مدرسة تقف في الساحة مع زميل لها، فتناديك وتقرأ على مسامعك نص بيان أصدرته صقور فتح تخوّن فيه رمزاً وطنياً، أو هكذا اعتبر في الداخل وفي الخارج أيضاً. "وها هم يخونونك أيها السيد "تخاطبه وتضيف: "وكنت ارى قسماً منهم يتحدث عنك باعتبارك مرجعية لا غبار عليها "وتتابع: "ولاحظت كيف أن عناصر عليا من فصيلك كانت تستشيرك في أمور كثيرة. وها أنت تصبح عميلاً للموساد الاسرائيلي، فلماذا اذن تطلب من الآخرين أن يحققوا معي لنص كتبته؟".

"وكنت اسير، مع صديق لي في شوارع البلدة القديمة، أتأمل في بناياتها القديمة العريقة، واشم رائحة التاريخ، وأتذكر بعضاً من طفولتي في المدينة. وفجأة التقيت به. صافحته وعرفت صديقي عليه، وأخبرته. بما جرى معي، وكيف هددوني؟ فقال لي: لقد كتبت ولم تحترم الآخرين".

وتنظر أيضاً في اختلاف أحوال بعض النشيطين، منذ فترة طويلة، سياسياً. هؤلاء الذين كانوا فعالين في فترة كانت الكثرة فيها لا تبدي اي اهتمام بالشؤون الوطنية. وترى العجب العجاب في الأرض الخراب. تنبذ هذه الشخصيات وتهمش، فيما تتصدر المناصب شخصيات أخرى ما كانت، ذات يوم، تشارك في العمل السياسي أو مستعدة للمشاركة فيه، شخصيات انتهازية الى ابعد الحدود.

ويحزنك أن شخصاً، كان بينك وبينه صداقة وطيدة واسهامات مشتركة في خدمة القضية، يأتيك ذات نهار ليقول على مسمعك بأنك تريد، من وراء كتابتك، ماأراده الدكتور سليمان بشير.

"كنت أعرف الدكتور سليمان بشير جيداً. وقد فصل من الجامعة لكتاب أصدره ورأت فيه التيارات الاسلامية تطاولاً على الدين الاسلامي ومحاولة للاساءة الى المسلمين. وأذكر أنني، وكنت عضواً في نقابة العاملين، الوحيد الذي ووقف ضد فصله، وطالبت من أساتذة الجامعة أن يردوا على الكتاب بكتابة. ولكنني حزنت لما آل اليه، فقد شاهدته يتكلم من على شاشة التلفاز الاسرائيلي بطريقة مبتذلة، ولعله كان يقصد، من وراء ذلك، أن يصبح مدرساً في الجامعة العبرية".

ويحزنك أكثر من هذا كله موقف بعض الفصائل. تحاول بعض الفصائل أن تضع المسؤولية، فيما حدث معك، على فصائل فلسطينية لتبرىء الاحتلال. وتتساءل: هل يعود ذلك الى مدريد أم الى تحسن العلاقة بين الفصائل المفاوضة والاسرائيليين؟".

وتنظر الى أمر عائلتك. تختلف العائلة، فيما بينها، اختلافاً كبيراً، اختلافاً لا يقل عن اختلاف الفصائل والدول. يصبح كل فرد منها تابعاً لفصيل أو ممثلاً لدولة أو لرؤية اجتماعية معينة.

"وكنت أعرف أن لحماس مندوبها الدائم الذي يتبنى رأيها ويكرر ما تقوله، وأن لفتح أيضاً ممثلها، وكنت أعرف أيضاً أنّ أبي يرمز للشيوعيين الذين ليس لهم موقف عدائي من اليهود كونهم يهوداً، وبخاصة أنه، قبل عام 1948، كان يعرف العديد منهم ومنهنّ. وعرفت أيضاً أنّ ثمة طرفاً ما، في المنـزل، مدّ جماعة الجهاد الاسلامي بمعلومات عديدة".

وتنظر في أمر أسرتك. اسرة ممتدة لها تشابكاتها مع اهل المدينة واهل الريف واهل المخيم. وتخاطب ابا عمار: "وها نحن نتبنى شعارك عن الوحدة الوطنية واهميتها وضرورتها فننفذه فعلاً لا قولاً."

" وكان أهلي اذا ما عرفوا انني أفكر بفتاة من أهل الريف أحضروها وزوجها ليقولوا لي ذلك اشارياً. وكانوا يفعلون الشيء ذاته اذا ما ظنوا انني أفكر بفتاة من المدينة أو بفتاة من المخيم. وتجاوز الامر ذلك الى درجة توظيف الصغار وما يمتاز به كل واحد من خصائص. فهذا الساهي الداهية يجلس الى جانبي اذا ظنوا انني ساه داهية. وهذا الهادي، غير الثرثار يجلس الى جانبي اذا ما ظنوا انني منتم لفصيل سري. وهذا الثرثار ذو الصوت العالي يجلس الى جانبي اذا ما ظنوا أنني ثرثار ذو صوت عال. وكانت تلك ترمز الى بربارة، وأخرى الى أندريا، كما كانت الجارة، وهي تجلس الى جانب زوجها على الشرفة، ترمز الى نينا، فيما كانت جارة مقابلة ترمز الى فتاة في الحي ترغب في الزواج على ان تكون سيدة بيت."

وتتابع ايضاً حركاتهم الموحية حول الصغير. يكررون ما تقوله الفصائل والدول، وكنت تحزن لهذا، وكنت ايضاً تلعن الوطن وفلسطين التي خربت كل الاشياء الجميلة. ولم تكن يومها تتهم بأنك مخابرات اسرائيلية، ولم تكن نشرت مقالاً عن سميح القاسم تتتبع فيه تراجع الشاعر عن مواقفه، وحذفه، بناء على ذلك، مقاطع من أشعاره كتبها وهو شيوعي. ولم يكن الشاعر قد اتهمك بأنك صغير وحاقد و استسلامي وخائن وعبد. وكنت، وانت تقرأ ما كتبه سميح، تهمس: يكبر الصغار، يا سميح، وليس في هذا ما يخالف سنة الحياة، ولكن الأسوأ، وهذا ما يخالف سنة الحياة، هو أن يصغر الكبار. أليس كذلك؟

وتغرق، وانت تشاهد العبث الذي يمارسونه، في عزلتك. وتحيا بعيدا عن الآخرين. وتكرر، من جديد، عبارة سعد زغلول. وتفكر، فيما بدأت القوات الفلسطينية في المنفى تعود الى الوطن، تفكر في الرحيل. وتهمس: " ترى هل سأكرر ما قاله مظفر النواب؟" وتكرر مقاطع شعرية. تكرر عبارته: خجلت أقوله له قاومت الاستعمار فشردني وطني.